حرائق القاهرة في التاريخ

تأليف

محمد محمود زيتون

الطبعة الأولى ١٩٥٩

الكتاب: حرائق القاهرة في التاريخ

الكاتب: محمد محمود زيتون

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

زيتون ، محمد محمود

حرائق القاهرة في التاريخ / محمد محمود زيتون

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٤٢ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٨ – ٨٠١ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٣٨٣٢ / ٢٠١٨

حرائق القاهرة في التاريخ





فكرة.. لا تاريخ

من الأحداث العظام.. ما يكون له دوى مستمر.. على ممر الأيام.. ومع ذلك تخفى حقائقه على التاريخ.. وغالباً ما يبذل المفكرون جهوداً مضنية.. للحول على هذه الحقائق.. فتذهب جهودهم أدراج الرياح.

ونحن– بعد مطالعاتنا للتاريخ–: قديمه وحديثه– لا تريد أن نجتره اجتراراً.. وإنما نحن نستعيد وقائع معينة... لنخرج بفكرة معينة.. نضاعف بها الكرات الحمراء في دمائنا.. ونتحصن بدفئها من غوائل المباديء الوافدة...

وصيد "الفكرة" من الماء العكر.. ليس بالأمر الهين.. على ما يبدو.. كذلك نشرها.. يجب ألا يكون من أجل الاستهلاك المحلي.. وإنما من أجل الفكرة أيضاً..

هذه الصفحات.. مثلاً.. لم تكن تصلح للنشر من قبل.. لأنها كانت صوراً مهزوزة إلى حين.. وكانت غير مكتملة العناصر.. في بعض أجزائها.. كما أن الأقلام الحرم. لم تتناول الموضوع بالتحليل الدقيق.. فلا عجب إذا كان القاريء الظاميء غير ملوم.

وآن الأوان.. لكي تأخذ هذه الصفحات نصيبها من تراث الشعب.. بعد أن حاول المغرضون طمس معالمها.. لستر جرائمهم هم..

وغاب عنهم أن الحق سيف مسلط على التاريخ.. سواء نطق أو سكت.. وعلى ذلك لن يجد القاريء الواعي بين يديه كتاباً في التاريخ.. أو السياسة.. أو الأدب.. وإنما سيجد صفحات مجهولة عن "فكرة" كانت في حالة تميع.. والآن تبلورت.. وتجوهرت.. فهي بهذا تستحق أن تتحول في الحال والاستقبال.. إلى طاقة روحية تدفع إلى أمام. وترفع إلى أعلى في خلال سبع سنوات من "حريق القاهرة".. طال الوقوف على الأطلال والأنقاض.. لا للبكاء والرثاء.. ولكن للتنقيب في الرماد الهامد.. فأمكن الوصول إلى "فكرة" واضحة.. عن حدث كان له مقدماته ونتائجه.. فإن نفعت فهذا عين المراد.. وإلا فهي المحاولة الصادقة.. لسد الفراغ.. وحفز العقول.. ثورة شقت طريقها في الحياة.. فكانت أكبر حدث سجله التاريخ لمصر– أم الحضارة– في بداية النصف الثاني من القرن العشرين..

وهي بعد.. نفحة.. من وادي الخلود.. نقبسها لأبناء هذا الجيل.. من هالات الشهداء.. شهداء القنال.. الذين كتبوا بدمائهم الزكية النقية.. صفحات البطولة والرجولة.. ناعمين في الفراديس العلا.. فرحين بما آتاهم الله من فضله.. ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم.. رضى الله عنهم ورضوا عنه.

محمد محمود زيتون

يناير ١٩٥٩

من أجل مصر

إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ وتأميم شركة القنال

سجل التاريخ المصري الحديث– في خلال خمس سنوات– حادثين من أهم الحوادث التي تستحق الذكر والفكر، أولهما إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، والآخر تأميم شركة قناة السويس.

وفي ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ في نفس الساعة التي كان يلقي فيها جمال عبد الناصر خطابه بالمؤتمر الشعبي المنعقد في ميدان التحرير بالإسكندرية، معلناً تأميم شركة قناة السويس، كان مندوبو الحكومة يتسلمون مقاليد الشركة من الأجانب، وإداراتها لحساب الشعب المصري، وأممناها باسم القانون.

هذان الحدثان، اللذان وقعا في خلال خمس سنوات من تاريخ بلادنا، لهما حق التأمل والتدبر.. على كل مواطن في هذا الجيل.. والجيل الذي يليه.. وما سيعقبهما من أجيال، .. وذلك لاستخلاص "الفكرة" التي تنطوي عليها الحوادث.. والإفادة من الملابسات التي أحاطت بها.

ومن وعي التاريخ في صدره أضاف أعماراً إلى عمره

كفاح الشعب

كان إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ نشيد كل مصري.. لأنها استنفدت أغراضها.. وأصبحت– كما قال أحمد لطفي السيد– غير ذات موضوع، ولم يعد بد من إلغائها.. لتحقيق الجلاء عن مصر، ولاستكمال سيادتها واستقلالها.. بعد أن تعاقبت حكومات وحكومات.. كانت كلها تسير في فلك الإنجليز، وتأتمر بأمرهم،، وتحتمي بقوات الاحتلال.. الجاثمة على صدر الوطن.. لا فرق فى هذا بين حكومة وحكومة،، حزبية أو غير حزبية، الكل في البلاء سواء.

وما من مصري إلا ويذكر أن فاروقاً.. والملوك والأمراء والسلاطين والخديويين.. من آبائه وأجداده– أو على الأصح الذين كان يقال إنهم آباؤه وأجداده– كانوا جميعاً "عملاء" للاستعمار التركي والفرنسي والإنجليزي على التعاقب..

لهذا وجد الشعب المصري نفسه مضطراً لتحمل أعباء الكفاح وحده.. هذا الكفاح الذي استطال واستعرض.. فاتسعت رقعته.. وتعدد الخصوم. وبعدت المسافة بين كل مرحلة وما يليها من مراحل.. أصابته فيها العثرات بعد العثرات.. وكلما أوشك على إدراك أهدافه.. عاد القهقري.. لتعويض ما كان قد فاته.. واحتاج إلى زعامة رشيدة فلم يجد..

وهكذا سار كفاح الشعب في مدى قرون.. ينعثر في خطاه. بطيئاً بطيئاً كأنه على ظهر سلحفاة... وفي العصر الحديث.. كان أكثر تعبراً..

وأقل سرعة مما كان.. فقد تحالفت ضده قوى ثلاث.. لكل منها جبهتها. تعمل في فلكها الخاص بها، وتدور في الوقت نفسه في فلك القوتين الآخريين... فكان عليها أن يتعملق في مواجهة تلك القوى الثلاث:

١- أسرة محمد علي..
٢- والاستعمار البريطاني..
٣- وطبقة الحكام...

وما كان لجبهة دون أخرى لتقف وحدها في وجه المقاومة الشعبية.. ولكن الجبهات الثلاث متحدة وجدت نفسها ملزمة لأن تتماسك وتتساند فيما بينها، وبين الجبهتين الآخريين.. ضماناً لبقائها.. وصمودها طويلاً لانتقاضات الشعب.. المتربص لها منفردة ومجتمعة..

وهذا هو السر الوحيد.. في أن الشعب قد أطال فترات كفاحه عامداً متعمداً خشية الانتكاس.. والانتقال من حالة سيئة يعانيها إلى ما هو أسوأ منها.. وكانت الظروف تخدمه من تلقاء نفسها.. عندما كانت إحدى الجبهات المعادية ينتابها التصدع.. فتقف بباب الشعب تتمسح به .. وتتملقه.. ولكنه كان على حذر:

لا أذوذ الطيـــر عـــن شـــجر   قـــد بلـــوت المـــر مـــن ثمـــره

وظلت شجرة الحرية.. دائمة الخضرة... وجمرة الثورة.. دائمة الوقود.. لا تكاد تخبو في ظاهرها حتى تتألق وتتوهج.. فتمد الأحرار بما يروون به نفوسهم الظمأى إلى الشهادة في سبيل الوطن..

وكلما اشتد ضغط المظالم على الرءوس.. وتمكن الشعور بالفوارق من النفوس.. زادت درجة الحرارة ارتفاعاً.. وزادت دماء الشهداء تدفقاً.. وكان للتوعية الشعبية ميادينها التي أسهم فيها رواد الحرية.. فضلاً عن المياه الجوفية.. الدافقة في سكون رهيب.. الماضية إلى غايتها المرسومة.. بكل رؤية وأناة.. ثم وأتتها عوامل (التبلور) فصارت "ثورة".

كانت هذه الثورة تعرف– غداة ظهور ما في ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢– "بحركة الجيش" وأبى الجيش والشعب إلا أن يطرح كل منهما على الاخر فضل تحقيقها.. فالشعب يقول "ثورة الجيش" عرفاناً بما للجيش من فضل.. في التصميم والتنفيذ.. والجيش يقول "ثورة الشعب" لأن الشعب حماها وافتداها،، وظل يرعاها حتى بلغت أهدافها القريب منها والبعيد، وحتى عززت مراكزها، وحظمت جميع القناطر التي خلفها، إلى غير رجعة.

ولا خلاف في الواقع، لأن الجيش جيش الشعب، والثورة هي ثورة الجيش، وإذن تكون ثورة الجيش هي ثورة الشعب.

تلك بضاعتنا

ولا جدال في أن الثورة، قد نجحت، ومضت في طريقها قدماً إلى الأمام، لا تلوي على شي، لم تتراجع لأنها صممت على ألا تتراجع، فكان ضرباً من الجنون أن يداعب الملكية خيال العودة إلى مصر، أو أن يساور أحلام الإقطاعيين توبة من النجاسة الحزبية، ولو تطهروا سبع مرات إحداهن بالتراث، والسبب معروف، إذ أن الشعب لم يسمح ولن يسمح بدخيل يشق صفوفه، ولا بدم غريب يسرس في كيانه، فقد استفرغت الثورة ما في كل صدر من طاقة كامنة، وتولت هس توجيه كل شحنة نحو غايتها، ما كان منها سالباً وما كان موجباً.

متى إن تكن حقاً تكن أعذب المنى وإلا فقد عشنا بها زمنا وغدا

وها يتساءل البعض: إذا كان الشعب قد احتضن الثورة، وافتداها، وتعلق بها، فما هو السبب في ذلك؟ والجواب حاضر إذا عرفنا أن عنصراً هاماً كان يعوزنا في كفاحنا، من زمن بعيد، هذا العنصر الذي افتقدناه، والذى كان لابد منه ليكون تيار كفاحنا مستمراً غير متقطع، هو "التكتيك".

قطن إليه الضباط الأحرار وحدهم، لأنهم تحققوا من إفلاس الزعامة الحزبية في مصر، فزهدوا فيها، واستطاعوا بتماسكهم- فيما بين بعضهم بعضاً من جهة، وفيما بينهم وبين الشعب من جهة أخرى- أن يردوا للوطن اعتباره، وللشعب داره، وتلك بضاعتنا ردت إلينا.

واستطاعوا أيضاً بفضل هذا "التكتيك" أن يضعوا حدا لمائة وخمسين سنة، تحكم في رقابنا خلالها فئة مشردة من (قولة)؛ قال السلطان يوماً عن رأسها الأكبر محمد علي بأنه لا أصل له ولا فصل... محمد علي الذي قال سنة ١٨٠٥ عندما خلاله الجو: "اليوم طاب لي ملك مصر، فلا خوف علي".

وانقضى قرن ونصف قرن من الزمان.. بطرد فاروق من جنة تجري من تحتها الأنهار.. كانت ثمارها له ولأسرته خالصة.. لهم المغانم.. وعلى الشعب المغارم.. وكأني بفرعون وقد نفخ الشيطان في منخريه يقول "أليس لي ملك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحتي".

وتنفس الشعب، وعادت الأرض إلى الدين طالما حرثوها بسواعدهم، ورووها بدمع العين وعرق الجبين.. بل بدماء الشهداء الأبرار من آبائهم وأبنائهم.. رجالاً ونساء.. شيوخاً وأطفالاً.. عادت إليهم فلم يعد يتحكم فيهم تركي أو شركسي.. صاحب سعادة.. أو صاحب معالي.. أغا أو كتخدا.. وصدق الله حيث يقول:

"ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمة ونجعلهم لوارثين".

فن التكتيك

من هنا كان الفرق واضحاً بين شعب سنة ١٩١٩ وشعب سنة ١٩٥٦، فالأول لم يكن له بواعث وأهداف.. لأن التمرد والسخط وللظاهرات والخطب الرنانة وإلهاب الشعور، والهتاف "بالاستقلال التام أو الموت الدائم".. كل ذلك وما إليه لم يكن يصلح وقوداً لإنضاج ثورة، ولم يكن يصلح أساساً لخلق زعامة ذات رصيد.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لم تتخذ الوسائل الفعالة، والسبل الواقعية للوصول إلى الغاية.. وبعد هذا وذاك لم يكن الشعب قد بلغ من الرشد. درجة يتمكن بها من التمييز بين "المبدأ" و"الشخص".. فكان الهتاف يشق الفضاء عالياً مدوياً "الاحتلال على يد (سعد).. ولا الاستقلال على يد (عدلي).. فانحلت العروة. وانقلبت عملية تعبئة الجهود إلى "تفريغ" الشحنات الشعبية.. وختاماً. ركب الخليفة وانفض المولد".

ولما كان جمال عبد الناصر، يدرس "فن التكتيك" في الكلية الحربية وممن خاضوا غمار معركة فلسطين. فقد أدرك خطورة هذا الفن، لا في الحرب وحدها.. وإنما في كل عمل إنساني.. في الحياة العامة والخاصة.. وانتهى إلى أن هذا الفن هو المنهج الفكري لكل حركة، بذلك تقول طبيعة الأشياء.

وكان صدى هذه الفكرة كتاب "فلسفة الثورة" وفيه يقول أستاذ "الفلسفة الحربية" جمال عبد الناصر:

"ولكل شعب من شعوب الأرض ثورتان: ثورة سياسية يسترد بها حقه في حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه، أو من جيش معتد أقام في أرضه دون رضاه، وثورة اجتماعية تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد، لقد سبقتنا على طريق التقدم البشرء شعوب مرت بالثورتين، ولكنها لم تعشهما معاً، وإنما فصل بين الواحدة والثانية مئات من السنين، أما نحن فإن التجربة الهائلة التي أمتحن بها شعبنا هي أن تعيش الثورتان معاً في وقت واحد".

وهكذا خرجت الثورة من عقل صاحبها، إلى الهواء الطلق، واضحة المعالم، مفهومة الدوافع، مرسومة الغايات، في خطوط عريضة بارزة، قائمة على التحليل والتدقيق، والرأي والمشورة، وليست من واردات الخارج، بل كتب عليها "صنع في مصر" وهكذا أكبر ضمان لبقائها، ثم إنها لم تحجب عن الشعب ملامحها من أول لحظة: لا تشوبها دعاية متكلفة مبتذلة، ولا تسوقها سفسطة أو مغالطة، لم تتنكر لعبر الماضي، ولم ترتجل لبناء المستقبل، فكانت مفصلة على قد الشعب المصري تماماً.

فلـــم تـــك تصـــلح إلا لـــه ولـــم يـــك يصـــلح إلا لهـــا

الطرق السليمة المشروعة

أحزاب... ولا كرامة

إذا أمعنا النظر في فلسفة "حزب الوفد" باعتباره كان أقدم الأحزاب المنحلة.. وتولدت منه أحزاب أشبه بالانسلاخات.. كالحزب السعدي.. وحزب الأحرار الدستوريين.. وحزب الشعب.. وحزب الاتحاد.. وحزب الكتلة الوفدية.. نرى أن هذا الحزب قد رسم لنفسه– منذ نشأ– خط السير السياسي، كما ينص على ذلك منطوق المادة الثانية من هذا القانون حيث تقول:

"مهمة هذا الوفد: السعي بالطرق السليمة المشروعة حيثما وجدوا السعي سبيلاً في استقلال مصر استقلالاً تاماً".

والعجيب في الأمر أن اعضاء هذا الحزب الذين تضمنت أسماءهم المادة الأولى.. قد انفرط عقدهم.. وذهبوا أيدي سبأ.. ومن لم يمت منهم انفصل عن الوفد ليستقل برأيه في حزب من تلك الأحزاب المولدة.. ومع ذلك لم يبق فيه من مؤسسيه غير مصطفى النحاس.. الذي استطاع أن يضم إليه أعضاء آخرين، تقلبوا هم بدورهم، بين الثبات

على المبدأ، وبين الانسلاخ.. إلى أن قضت الثورة قضاءها المبرم، بمحل الأحزاب جميعاً..

ومن المؤسف له حقاً.. أن نقداً واحداً من النقود الحرة.. لم يوجه في يوم من الأيام إلى مباديء حزب من الأحزاب.. أو على الأقل إلى حزب الوفد.. والمادة الثانية من قانون تأليفه بالذات.. لأن محور الصراع الحزبي، كان يدور دائماً حول أشخاص الأحزاب.. وسلوكهم الشخصي.. وكثيراً ما كان يصل إلى نهش الأعراض.. وكشف العورات.. والشبشبة والردح.. وكان للشعب من وراء ذلك مادة غزيرة صالحة للتسلي والفرجة.. كما حدث في مقالات "مخالب القطط" الوفدية.. و"الكتاب الأسود" الذي نشره "مكرم عبيد" بعد انفصاله من الوفد.. وأدى إلى مهاترات تناولت الأمهات بالتجريح.. ونشر صور وثائق الزواج في الصحف.. ثم اختتمت بهذه الدراما العنيفة: تبادل القبلات.. وقد حلا لبعض الشعراء الظرفاء أن يسجل هذا الحدث التاريخي بقصيدة مطلعها.

دقـوا الطبـول وهيئـوا الأجراسـا   اليـوم قبـل (مكـرم) (النحاسـا)

وغنى عن البيان أن محور ارتكاز حزب الوفد هو "الطرق السلمية المشروعة".. ومتى؟ في وقت رزحت فيه مصر تحت نير الاحتلال.. مع أن الكرامة العقلية تأبى على كل حر أن يسالم عدوه الذي يحتل بالقوة المسلحة أرضه على الرغم منه.. مسالمة دائمة مؤبدة.. تصير فيما بعد مبدأ لحزب سياسي.. له برامج ومناهج.. وغايات ووسائل..

إنه إذن ليس سعياً إلى الاستقلال.. وإنما هو انحلال.. ورضى بالاحتلال، وهذا تراثنا ينطق بالحق، ففي القرآن الكريم "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم" وفي الحديث الشريف "الجهاد ماض إلى يوم القيامة" و"ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا"، وفي الشعر الرصين:

إذا المــــرء أولاك الهـــوان فأولــــه   هوانـا وإن كانـت قريبـاً أواصـره
فـإن أنـت لـم تقـدر علـى أن تهينـه   فدعه إلى اليوم الذي أنت قادره
وسـالم إذا مـا لـم تكـن لـك حيلـة   وأقـــدم إذا أيقنـــت أنـــك عـــاقره

وهكذا خرج حزب الوفد المصري على تراثنا القومي، وشذ عن مقررات الكرامة الإنسانية، فلم يعد له لدى الشعب أو التاريخ رصيد مدخر.

الحليفة الغادرة

ومضت سنون على توقيع المعاهدة، التي أطلق عليها النحاس "معاهدة الشرف والاستقلال"، وبالغ في الدعاية لها، وتعميق الشعور بحبها.. حتى أطلق اسمها على كل مرفق: طريق المعاهدة، حلاق المعاهدة، مسمط المعاهدة: وهذا أحد المتطرفين في الوفد يسمي بنته "معاهدة"، تيمنا وتبركا بالمعاهدة طبعاً.

واشتعلت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٢ وقامت حكومة "تشرشل" وقعدت فوجدت حكومة النحاس مبعدة عن الحكم، فلم تستطع بريطانيا أن تعيش برئة واحدة، فصدر الأمر إلى فاروق عن طريق دبابات (مايلز لامبسون) بتكليف النحاس بالوزارة، وإلا فعليه أن يتنازل عن العرش فوراً، وجيء بالنحاس يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ على ظهور الدبابات الإنجليزية، لأعلى أسنة الرماح المصرية، وقامت حكومة النحاس من جانبها بتنفيذ شروط معاهدة ١٩٣٦ نصاً وروحاً، بل بسماحة بلغت حد البلاهة، بل الخيانة، في سبيل إرضاء شهوة البقاء في الحكم، وكان الإنجليز– بحكم المعاهدة– يحتلون كل شبر في أرضنا، وكل صفحة من صحفنا، وعقل كل وزير من وزرائنا، يأكلون كل ما نزرع وكل ما نصنع، ولا نجد الخبز والسكر، ويدوسون أبناءنا، ويتفضلون علينا بالتعويض الكافي، الذي لم يصل في يوم من الأيام إلى ثمن كلب..

كل هذا لا يهم، وإنما الذي يهم هو أن نبذل كل مرتخص وغال في سبيل الحليفة، أملاً في التفضل علينا بالجلاء بعد الحرب، ولن ينسى المصريون الذين عاصروا (معركة العلمين) كيف كان جنود الحليفة وضباطها في معسكراتهم المضروبة فيما بين الاسكندرية ورشيد، والذعر قد أحالهم إلى فئران، فكان (جوني) أو (جورج) يخلع ساعته أو معطفه أو بندقيت يسلمها للغلام المصري الذي أدرك بفطرته هو أن جنود الحليفة، فأخذ يرجمهم بالحجارة رجم الأبالسة..

ومضت سنون وكتب الوفد بنفسه شهادة وفاته، فمات الوفد، فعلاً منذ ألغى معاهدة الشرف والاستقلال، بعد خمسة عشر عاماً من توقيعها، ألغاها تحت طبقات الضغوط الشعبية المتراكمة، فكانت ساعة إلغائها هي (ساعة الصفر) بالنسبة لفجر جديد من مفاخر هذا الشعب المجيد، الذي خف للكفاح المقدس، متحملاً وحده أعباء تحرير البلاد من غاصبيها، بغير حاجة إلى قيادة أو زعامة؛ فقد صار كل ذلك من مخلفات الماضي، ورواسب الرجعية البالية، والطائفية المجلوبة، واستأنف الشعب صفحة جديدة من صفحات كفاحه المعطل، ولكن لحسابه الخاص مستهيناً بالعوائق، متحدياً للصواعق، وخرج المارد من القمقم المسحور، فبان الوفديون إلى جواره أقزاماً ومسوخاً، ولم يعد المأجورون يصخبون ويهتفون "الوفد عقيدة الأمة" أو "جاهدوا حتى تكون كلمة الوفد هي العليا".

كل شيء على ما يرام

هب الشعب عن بكرة أبيه.. يحمل السلاح.. ويخوض المعركة.. وكان النحاس يخطب ما بين القاهرة والاسكندرية.. ويقول في المحطات التي يقف بها القطار، والمحطات التي لا يقف بها القطار.. "لقد قالت الحكومة كلمتها، فليقل الشعب كلمته".

أما الشعب فقد قالها فعلا.. وارتفع صوته فأخرس كل صوت.. نعم قال الشعب كلمته قبل أن يقولها الرئيس الجليل.. الذي كان إذا سئل

عن تدابير الحكومة بشأن الخطوات التالية.. لا يزيد على قوله "كل شيء على ما يرام".

وما من قرية أو مدينة إلا وقد جاوز فيها الهتاف عنان السماء "تريد السلاح" وما من قرية أو مدينة إلا وقد تعاون أهلها على إنشاء مركز للتدريب على السلاح بها.

وتنتظم الهيئات والأفراد في مؤتمرات لتنسيق الكفاح الوطني، وجمع التبرعات، وشراء الأسلحة، لا باسم أحزاب ولا زعماء، ولكن باسم العملاق الأكبر: الشعب، ويتطوع القائدان العجوزان... المجاهدان: الفريق عزيز المصري، واللواء محمد صالح حرب، للإشراف على شئون المقاومة الشعبية وتنظيم حرب العصابات بما لديهما من خبرات فتصدر تعليمات الحكومة تباعاً، سرا وجهراً، بوقف كل شيء، لحين صدور تعليمات أخرى.

وفي الوقت نفسه، تتكون فرق الحرس الوطني من شباب الوفد، يضعون شارات على أذرعهم، ويقفون عند مفارق الطرق، ونقط المرور.. وقد أباحوا لأنفسهم حق تفتيش السيارات، بحجة منع وصول مواد التموين إلى الإنجليز في منطقة القنال وكأن شباب الوفد.. من أصحاب (القمصان الزرق). قد أمروا بحل البوليس ليقوموا بمهامه.. وانقلبت المقاومة في منطقتهم إلى قرصنة.

وكثيراً ما تهبوا بضائع المواطنين تحت ستار الاشتباه في أمرها.. وتحول الكفاح بعد ذلك إلى منع كل سيارة من المرور ما دامت أرقامها مكتوبة بالإفرنجية.. وتحرشوا بالموظفين المدنيين من رعايا بريطانيا كالمدرسين والممتشين الإنجليز كما حدث في طنطا ودمنهور.

أما المسئولون فقد كانت خطتهم الموضوعة في التعجيل بالجلاء.. هي قطع مياه الشرب عن المعسكرات البريطانية.. وعدم توريد المواد الغذائية لهم.. حتى يموتوا عطشا وجوعاً، وليس أمعن في التفاهة من هذا المنطق، وأدهى من ذلك وأمر أن أقارب المسئولين في حكومة الوفد كانوا يقومون بتهريب صفقات اللحم والبيض والبرتقال إلى الأعداء. على الرغم من توقف المتعهدين عن التوريد للمعسكرات.. حقا إنها لمأساة.. ولكن.. "كل شيء على ما يرام".

شعب يريد الحياة

إذا الشـــعب يومـــا أراد الحيـــاة فلابـــد أن يســـتجيب القـــدر
ولابـــــد لليـــــل أن ينجلـــــي ولابـــــد للقيـــــد أن ينكســـــر

وشهد لتاريخ، لشعب مصر أنه أراد الحياة، وسجل له التاريخ.. مظاهر هذه الإرادة الفولاذية، التي تجلت في المواقف الرائعة، ومنها:

أولاً: الحصول على السلاح بأي ثمن، والتطوع في كتائب التحرير عن إيمان، وبذل أقصى الجهود في خطف الأسلة الثقيلة والخفيفة من

الأعداء لمحاربتهم بها، والتبرع بالأموال لتجهيز المتطوعين، والتكفل بعائلاتهم، أثناء المعركة.

ثانياً: التزام موقف التماسك في الجبهة الداخلية، وتناسي الخصومات والخلافات ووضعها على الرفوف مؤقتاً إلى حين الفراغ من معركتنا مع العدو المشترك، وبهذا تجنبت البلاد ويلات حرب أهلية، كانت تصرفات حكومة الوفد كفيلة إضرام نيرانها في أي وقت، لولا الحكمة والاتزان.

ثالثاً: استجابة آلاف العمال لنداء الفدائيين بترك أعمالهم في معسكرات الإنجليز تضامنا مع الشعور الوطني العام، وبذلك تعطلت الحركة من شحن وتفريغ وتموين بواخرهم وسياراتهم وطائراتهم، مما اضطر الإنجليز إلى جلب عمال من قبرص ومالطة واليونان.

رابعاً: حرص الصحافة- بالرغم من اختلاف مناحيها- على إبراز كفاح الشعب بصورة تحفز الهمم، وتستحث العزائم، فكانت الصور والمقالات والأخبار الصحيحة من العوامل الدافعة على تشجيع الفدائيين والمضي في المعركة إلى نهايتها وإن طالت.

خامساً: تجاوب الغرف التجارية مع شعور الشعب، وعدم استغلال الظروف لرفع أسعار السلع التموينية، ومحاربة البضائع الأجنبية بيعاً وشراء، وفرض رقابة دقيقة على التجار والمشترين على السواء.

سادساً: الكف نهائياً عن المهاترات والانتقادات حتى لا يستغل العدو فرصة التصدع الداخلي للنفاذ من هذه الثغرة إلى الشعب أفراداً أو جماعات مع التنديد الصارخ بكل من سولت له نفسه تيسير أي عمل عدواني يقع على جهاز المتطوعين أو المدنيين.

حكومة متخاذلة

بهذه الوسائل تذرع الشعب، لمواجهة الموقف، الذي ترتب على مغامرة الحكومة الوفدية بإلغاء المعاهدة، وكان مما يحمد لهذا الشعب الأصيل وقتذاك، سكوته التام عن المساويء والمخازي- وما أكثرها، فكان سكوته هذا أشبه بالهدوء الذي يسبق العاصفة، بينما الصدور تغلي كالمراجل، ولو تركت وشأنها لاجتاح فحيحها العرش بمن عليه، والوزارة بمن فيها، والغاصبين من الشعب حقوقه، والماصين دماءه، المتجرين بأقواته وأسلحته، الواقفين حجر عثرة في سبيل تقدمه وتحرره. كان هذا السكوت الشعبي هو الورقة الرابحة في أيدي "الضباط الأحرار" الذين حملوا أرواحهم على أكفهم، وأدوا مهمتهم الباسلة موفقة مباركة، للوطن والتاريخ.

أما مظاهر الخزي والعار، التي تمثلت في مواقف الحكومة الوفدية فنستطيع أن نوجزها فيما يلي:

١- حب الظهور أمام الجماهير، على نحو يثير المشاعر، لصرف الأنظار عن مخازيها، فيتحول السخط العام على الملك

والحاشية، وتلك دعاية حزبية رخيصة تهدف إلى استغلال شعور الشعب لمصلحتها فقط، دون التفات إلى مصحلة الوطن الكبرى.

٢- العمل الارتجالي في سياستها العامة، فقد ألغت المعاهدة بدون اتخاذ أي احتياطات عسكرية من حيث وضع الخطط بالاتفاق مع المسئولين في الجيش من شانها مواجهة الموقف بما يتطلبه من تدابير.. ولم تعمل الحكومة من جانبها على توفير الأسلحة مقدماً، أو إعداد الشعب للكفاح، واكتفت بوضع الشعب أمام الأمر الواقع.. ولم تضع في حسابها أي تقدير لشتى الاحتمالات المرتبة على هذه المغامرة الهوجاء التي دفعتها إلى إلغاء المعاهدة، وكان أكرم لها أن تستقيل بمجرد تعثر المفاوضات.. وفقد الأمل فيها..

٣- إصرار الحكومة على سلامة موقفها منذ وليت شئون الحكم، ضاربة، صفحاً عن سهام النقد المصوبة إليها من مختلف الدوائر الشعبية والحزبية، وإغفالها شأن الأواصر الوثيقة التي تربطنا بالدول العربية. وقد اتصف موقف الوفديين من القصر.. بالميوعة، تارة تمسح بالأعتاب.. وتارة شماتة لما أصاب الملك من فضائح أمه وأخواته.. والإيحاء بنشر كل هذا ستراً لمخازيها هي..

٤- إهمال المصالح العليا الخاصة بالدفاع، وعدم اتخاذ الحيطة في استلام صفقات الأسلحة المتعاقد عليها مع فرنسا، فقد نقلت الأسلحة على ظهر باخرة فرنسية تعمدت توصيلها إلى اسرائيل والعودة إلى ميناء الاسكندرية فارغة مدعية أن السلطات الإسرائيلية استولت عليها.. لو لم تتخذ حكومة الوفد مع فرنسا أي إجراء..

٥- حرصها على عقد اتفاق مع انجلترا وبأي ثمن، لضمان السير في ركابها إلى الأبد، صرح بذلك النحاس للمفاوضين الإنجليز أثناء المفاوضات، قائلاً لهم إن الجلاء "إذا تم فإننا سنضع أيدينا في أيديكم، ونعمل معكم بقلوبنا وأرواحنا" فجاء الرد البريطاني لطمة خيبت آمال النحاس وحكومته وحزبه، فقد أصرت بريطانيا على عدم الجلاء بدعوى عجز مصر في الدفاع الانفرادي عن نفسها، مما يوجب عليها الاشتراك في "الدفاع المشترك، مع انجلترا وفرنسا وتركيا وأمريكا.. دول المؤامرة.. في صورة مظاهرة".

٦- سكوت الحكومة عن المتعاملين سرا مع المعسكرات البريطانية لعلمها بأنهم أقارب الوزراء.. بينما المتعهدون والعمال قد استرخصوا تضحياتهم إزاء الشعور الوطني النبيل الإجماعي. وقد أقام الملك- في إبريل سنة ١٩٥٠- مأدبة كبرى بأنشاص دعا إليها زهاء تسعين من كبار ضباط الإنجليز في القنال.. ولم يحرك النحاس ساكناً..

٧- ضياع هيبة الحكومة أمام قوات الأمن والجيش.. مما جعل القوات المسلحة بمعزل عن الحكم.. فقد أمر الملك بتعميير (حيدر) قائداً عاماً للقوات المسلحة، فتقلص إلى جواره ظل (مصطفى نصرت) وزير الحربية، ولم يعد في إمكانه حتى إعطاء الأمر للقوات المنوط بها واجب الدفاع عن الشعب وحماية مصالحه.

٨- تهاون الحكومة- عقب إلغاء المعاهدة- في قرض الرقابة الشديدة على مراسلات الأجانب المقيمين في مصر ولاسيما المشتبه في أمر تعاملهم مع الإنجليز، ولاسيما الذين ينتمون إلى دول الدفاع

المشترك المتآمرة على مصر، وتشديد الحراسة عليهم وتتسع سلوكهم هم والصهيونيون والشيوعيون ونهازي الفرص من الهيئات والأحزاب والأفراد.

٩- غفلة الحكومة عن الخطرين على أمر البلاد في الداخل والخارج مما جعلهم يتمادون سراً في إحراج موقف الحكومة.. تدفعهم أموال أجنبية وأغراض هدامة.. بغية الإساءة إلى سمعة البلاد في المجال الدولي وشل حركة دولابها الإنتاجي، فيحجم أصحاب رءوس الأموال عن توظيفها في المشروعات العمرانية التي تعود على البلاد بالمنافع العامة..

١٠- اكتفاء الحكومة- على مرأى ومسمع من الشعب- بالسماح رسمياً بتنظيم المظاهرات المتتابعة "والجنائز الصامتة، مما أطمع فيها مثيري الشغب من أعداء البلاد والقاعدين للحكومة بالمرصاد.. وأدى إلى ظهور الحكومة بمظهر العجز عن الكفاح. وأدى أخيراً إلى مظاهرات ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ التي انتهت بحريق القاهرة".

وإذا كان لكل بداية نهاية.. فإن ختام إلغاء المعاهدة.. حرق القاهرة.. وكذلك انتهى تأميم القنال بضرب بور سعيد..

ولكن.. بين كل بداية ونهاية.. طرائف ولطائف.. ولكل خاتمة عبرة وفكرة.. فلنعد بالذاكرة إلى بداية المأساة الأليمة (حريق القاهرة).. ونتدرج منها إلى (ضرب بور سعيد).. بور سعيد التي كانت لمصر حصنا حصينا.. وللقومية العربية درعا سابغة.. وكان النصر.. ثمرة من ثمار خوانيمها.. والعبرة بالخواتيم.

معركة القنال

مسرحية شمشون

أخيراً.. وأخيراً جداً.. اكتشف الوفديون أن الإنجليز أغبياء.. فهل كان يظن الحلفاء الشرفاء أن النحاس كان يرمي من وراء إلغاء المعاهدة إلى فصل الحصان فصلاً نهائياً عن العربة؟! ما هذا الغباء؟!

إنه أراد بكل إخلاص أن يستبدل قيداً أكبر وأحدث بقيد أضيق وأعتق.. وما كان يقصد مطلقاً قطع العلاقات مع بريطانيا.. ألم يصرح أحد وزرائه يوماً ما بأن العلاقة بيننا وبين بريطانيا يجب أن تكون (زواجاً كاثوليكيا)..؟! لهذا كان إلغاء المعاهدة خروجاً على القاعدة المضطردة.. وعملاً أقل ما يوصف به أنه شاذ بالنسبة للمنطق الوفدي..

سلخ الوفديون في الحكم الأخير عامين.. أحسنوا فيها اغتنام كل دقيقة.. منذ أول دقيقة.. فعمدوا مبكرين إلى توزيع الوظائف.. واستحلال المحسوبية والاستثناءات.. واستغلال الشركات.. والاستيراد.. والاستشفاء في حمامات أوروبا.. وتهريب المشتريات والنفائس من الجمارك.. وتهريب الحشيش.. والتستر على المهربين.. لأنهم أصهار..

بذلوا في ذلك جهوداً جبارة.. ولا شك. فلما ضمنوا المناصب والموارد واطمأنوا إلى مصائرهم بعد الصفعات السابقة التي تلقوها صابرين.. مثلوا مسرحية شمشون الجبار "على وعلى أعدائي يارب".. وأسدل الستار على الشعار الخالد "ومن بعدي الطوفان".

حقاً لقد سعى الوفد "بالطرق السلمية المشروعة".. لإجراء مفاوضات مع الإنجليز بشأن الجلاء عن مصر.. استمرت شهرين تقريباً.. ودارت فيها المباحثات في حلقة مفرغة.. لا يدري أحد أين طرفاها..

وتلك المعاهدة التي وقعها النحاس في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦.. وأطلق عليها صفة "الشرف والاستقلال".. حاول إسماعيل صدقي أن يزيل آثارها بمفاوضات عرفت بمفاوضات صدقي- بيفن سنة ١٩٤٦.. فباءت بالفشل.. فلما تولى النحاس الحكم.. كان من الطبيعي أن يبذل قصارى جهده في الحصول من- بين شدقي الأسد البريطاني- على شروط وامتيازات أحسن مما انتهت إليه معاهدته الأولى.. وبالتالي أحسن مما توقفت عنده معاهدة صدقي التى لم تر النور..

ولكن الحظ لم يحالف النحاس هذه المرة.. فقد تغيرت الظروف، لا بالنسبة للوعي الوطني فحسب، ولكن أيضاً بالنسبة لتغير محور السياسة البريطانية، بعد اتفاقها مع حليفاتها على تنفيذ "الدفاع المشترك.." وقرضه على حكومة مصر.. مصر الوفد.. تحت الضغط والتهديد.. وسرعان ما وجد الوفد نفسه في دوامة.. وكان عليه أن ينقذ

نفسه، وسمعته من الانهيار،، ولو بحركة مسرحية لأن الحوادث التي أحاطت به، كانت أكبر منه، ولا قبل له بها، وهذا ما حدث.. فقد ألغى معاهدة سنة ١٩٣٦؛ وهو مطمئن إلى أنها لعبة مكشوفة.. وأنه إذا أقيل هذه المرة،، فليخرج من الحكم بزفة.. وليتخذ من هذه الإقلة مادة خصبة يطنطن بها طويلاً، ويوسع نطاق الدعاية بأن خصوم الشعب في الداخل لم يمكنوا الوفد من استخلاص حقوق البلاد، وحرموها من طبختها وهي ما تزال على النار، لم تنضج بعد، بينما الوفديون قد كلت سواعدهم من جمع الحطب، وانتفخت عيونهم وأوداجهم من النفخ على النار، فإذا لم يتركهم الملك حتى يتم على أيديهم إنضاج الطعام المشتهى، فذلك ما كنا نبغى، وبيدي لابيد عمرو.

وهنا يترك الوفد حكم البلاد غير آسف عليه.. فالتركة مثقلة بالديون، وليكن بعده ما يكون.. ومن بعده الطوفان..

كتائب الفدائيين

قلنا إن الوفد قد نجح في تعزيز مركزه من أول لحظة لينعم بمنهوياته إذا تخلى عن الحكم أو فرض عليه ذلك... لهذا فإنه كان يتوقع أمر الملك بالإقلة أو الإعفاء.. ما بين غمضة عين وانتباهتها.. منذ ألغى المعاهدة.. كان يتلهف في شوق ولهفة.. إلى الراحة بعد العناء... بعد أن تم توزيع الأسلاب والغنائم بالتساوي النسبي بين الوزراء

والنواب.. والمحاسيب والأصهار.. لأنه حصرم.. تضرس منه الأسنان.. وصدق المتنبي:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها حتى بشمن وما فى الكرم عنقود

وتلك هي الحقيقة المرة.. فقد ترك الوفد خزانة البلاد خاوية على عروشها.. بعد أن استنفد الاحتياطي من الميزانية.. وما فى الكرم عنقود.. وكاد الخريف أن ينقضي.. ولم يكن الوقت موسم البطيخ الصيفي ليجد الوفد ما يطفيء به تخمة بطنه..

وانقضت الأيام تتلوها الأيام..– بعد ألغاء المعاهدة–.. ولكن الحكومة مكتوفة الأيدي.. والشعب ينتظر الخطوات التالية.. بلا جدوى.. عندئذ طافت المظاهرات السلمية في شوارع الإسماعيلية. وبورسعيد.. فتصدى لها الإنجليز.. وصوموا مدافعهم على المواطنين العزل من كل سلاح. وأحيط بهم من كل جانب بالمصفحات والدبابات الثقيلة من طراز (شيرمان) و(سنتوريون). والشعب لا سلاح معه.. ويومئذ استشهد اثنا عشر.. واحتلت القوات الغاشمة بور سعيد والإسماعيلية. وأرغم الدخلاء أبناء الوطن على الخضوع لأوامرهم وتفتيشهم بالقوة وسلب ما في جيوبهم.. وكان الرد من جانب الشعب عنيفاً على غير ما كان يتوقعه الديوك الحمر:

هذه الفلاحة (أم صابر) ذات الجلبات الأسود.. والخلخال الفضي.. والعقد الغليظ من الخرز الأصفر.. تقف في الصف الطويل،

وتمتد إليها يد الإنجليزي النجس ليفتشها.. فتضربه على يده قبل أن تدنسها يده القذرة.. وبهذا أهانت شرف التاج البريطاني.. تلك الإهانة التي لا يغلها إلا رصاصات تستقر في جسد الفلاحة المصرية.. زوجة الفلاح المصري.. فتسقط على الأرض مضرجة بدمائها الزكية، فداء لأمها الكبرى مصر..

والفدائيون.. وما أدراك ما الفدائيون.. يضربون النيران في مخازن الأعداء. ويجعلون سياراتهم ودباباتهم وخيامهم ومعداتهم وبطارياتهم طعمة للنيران.. واستمرت هاتان الخالدتان.. تكافحان الهجوم الغاشم بكل ما أوتى أهلهما من قوة.. واشترك في المقاومة الشعبية لأول مرة أطفال وغلمان، ونساء وشيوخ، فأحس العدو بالأرض تميد به، وتغور من تحته.

ذاعت هذه الأنباء وشاعت، وسرت الروح المعنوية في النفوس مسرى النار في الهشيم، فسرعان ما انتظم في كتائب التحرير كل متطوع جاد بدمه وماله،، دفاعاً عن شرف بلاده، أرض آبائه وأجداده.

واشتدت الوطأة على رءوس الإنجليز قياماً وقعودا وعلى جنوبهم.. نياماً وأيقاظاً وسكارى، وعجلان ما اتخذت الأمبراطورية العجوز، تدابيرها الفعالة، فحشدت ثمانين ألفاً من جود وضباط في منطقة القنال. قبل أن تختلج عين في مصر باليقظة من سبسات عميق طويل، ولكن الذي جد في الأمر أنها عززت هذه الحشود بستة آلاف أقلتهم البواخر والطائرات

من قبرص... وطرابلس.. واغتصب القراصنة من القوة المصرية.. حراسة كوبرى (الفردان).. وقتلوا بعض الضباط والجنود وأسروا البعض الآخر، وبذلك عزلوا مصر عن شبه جزيرة سيناء.. وعن قواتنا المرابطة في غزة.

واشتعلت الروح الوطنية.. وتدفق المتطوعون، بالمئات والألوف وبأمثالهم من خلف الصفوف.. وبذل كل مواطن ما في يده.. وأخذت كل مواطنة تخلع ما نتزين به من جواهر وحلي.. وتبرعت بها.. وخرجت الفلاحة المصية تودع زوجها وابنها.. وأباها وأخاها.. إلى خطوط النار بالزغاريد والأناشيد.. والحلوى والورود.. على نحو لم نشهده ولم نسمع به من قبل.

وهل نسى التاريخ.. كيف كانت هذه الفلاحة تفقأ عين ابنها بماء الملوخية الساخنة.. أو تبتر سبابته اليمنى حتى يعفى من الجيش.. فلا يرى ولا يشد على الزناد؟ كانت الفلاحة تفعل ذلك أيام أن كان المصريون أغناماً تساق إلى حروب في المورة، أو روسيا.. أو المكسيك أو الحجاز.. أو الحبشة.. أو السودان.. حروب لأناقة لهم فيها ولا جمل.

أما اليوم.. فالحرب تدور رحاها، بيد كل مصري.. وجد أن المسافة بينه وبين هدفه.. قد اقتربت.. فليعمل بنفسه ولنفسه.

ومضى الشعب. في طريقه الذي رسمه لكفاحه.. غير عابيء بأوامر الحكومة.. التي تقضي بوقف التبرعات.. ومنع تدريب المتطوعين، بينما

الإنجليز يحصدون الأرواح بمناجل غدرهم.. ولا يتلقون من الحكومة غير الاحتجاجات شديدة اللهجة.

والفدائيون مع هذا أيقاظ غير نيام.. دوخوا الإنجليز وعائلاتهم، وأشاعوا الذعر والإرهاب،، فارتعدت منهم الفرائص،، وخارت منهم القوى.. وذهلت العقول.. وطارت الألباب.. فصدرت التعليمات بترحيل عائلات الإنجليز فوراً من مصر.. ولم يذق العدو للنوم طعماً، ولم يجد للحياة معنى.. بسبب نشاط "الفرقة الخفيفة".. التي أذهلت القراصنة،، بخفة اليد في خطف الأسلحة والملابس بل وأجساد الجنود والضباط،، فلا تجد لها مستقراً إلا في قاع ترعة الإسماعيلية.. أو فى أحشاء الكلاب.

ويصرخ المحتلون، ويعلو صراخهم، ويجأرون بالشكوى إلى حكومة مصر، لتتولى حمايتهم من إرهاب الفدائيين، ووقف أعمالهم وهكذا: ضربني فبكى، وسبقني فاشتكى.

دماء وأشلاء

اشتعلت رؤوس الإنجليز شيبا من هول الصواعق المرسلة عليهم من أوكار الفدائيين.. على سبيل الهدايا.. فكان جنود الامبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس يستسلمون من الذعر.. أو يسلمون مدافعهم وقنابلهم ثمنا لخيانتهم.. أما قائدهم المسعور (أرسكين) فقد أفرغ سعاره في هدم منازل قرية (كفر عبده).. فأصبحت وكأن لم تكن، وهام ألف

نسمة من سكانها على وجوههم في قرى مديرية الشرقية.. يعانون برد شهر ديسمبر القارس.. ويقاسون مرارة الجوع والعرى والغلاء..

هذا.. ودماء الأهلين وأشلاؤهم تتناثر في مدن المنطقة وقراها.. ضحايا الغدر والعدوان من (الحليفة الفاجرة).. وأصبح شرف المقاومة موزعاً بين السويس وبورسعيد والإسماعيلية وأبو صوير والتل الكبير وكفر عبده..

ويتيه (أرسكين) و(اكهام) فخراً ودلالاً.. بما حققته سياسة (تشرشل) من نصر على أيديهما.. من قتل الأبرياء.. وجك محافظتي بور سعيد والإسماعيلية.. ووقف إنتاج البترول لتعطيل القوة المحركة في مصانع مصر.. وشل الحركة الاقتصادية في المناطق الصناعية المتوقفة على البترول..

وصارت منطقة القنال ميدان حرب طاحنة.. لم يتورع فيها الإنجليز عن أخس الخصال.. وأبشع النذالات.. من إحراق مباني الحكومة.. والمستوصفات.. وهدم المنازل في القرى والكفور.. كيلا يستتر وراءها الفدائيون في حملاتهم الإرهابية على المعسكرات.. ونهب أقوات الفلاحين من الحقول، والفتك بالأطفال الرضع.. والشيوخ الركع.. وسلب ركاب القطارات والسيارات في طريقهم إلى أعمالهم.. وراح في هذه المعمعة مئات المواطنين شهداء في ساحة الشرف.. وكتب التاريخ في سجل الخالدين: نبيل منصور.. ومحمد مصطفى الحداد.. وإبراهيم

عبده خميس.. وعبد الحميد سليمان.. وأم صابر.. وسيدة البنداري.. وعمر شاهين.. وأحمد منيسي.. وعباس الأعصر.. وعبد الحميد عبد الله.. وغيرهم من جنود وضباط..

وكان جنود البوليس وضباطه.. ومن يشد أزرهم من بلوكات النظام يرفضون تهديدات الإنجليز وإنذاراتهم بإخلاء مخافرهم.. وما أروع رد الضابط المصري.. "مصطفى رفعت" على إنذار الإنجليز يوم **٢٥** يناير سنة **١٩٥٢** بهدم دار محافظة الإسماعيلية على من فيها.. فيقول ضابطنا الهمام "تن يتسلم البريطانيون منا إلا جثثا هامدة".

باب الحرية

إن التاريخ لا ينسى أبد الدهر ما فعله الإنجليز بالفدائيين السبعة لاذين أسرهم الإنجليز.. وصلبوهم على جذوع الأشجار.. وأطلقوا عليهم الكلاب المسعورة– مثلهم– تنهش لحومهم.. ليحملوهم على الإرشاد عن مراكز نشاط الفدائيين.. فلما استعذبوا الموت في سبيل الوطن.. وآثروا الشرف على حياة الذل والهوان.. أعدمهم الإنجليز رمياً بالرصاص..

ولن ينسى التاريخ أيضاً ما فعله الإنجليز بمقابر الإسماعيلية.. التي نبشوها.. وبعثروا رفاتها.. ولم يواروها التراب.. هاتيك العظام النخرة.. التي زايلتها أرواحها.. حتى إذا نفخ في الصور.. وبعثر ما في القبور.. وحصل ما في الصدور.. شكت إلى باعثها.. عدوان هؤلاء الغاشمين..

الذين لم يراعوا حرمة الموت.. وكانت حجتهم الواهية.. التفتيش والبحث عن ذخائر الفدائيين التي خبأوها هناك...

ولن ينسى التاريخ أبداً.. ما فعله الإنجليز في الإسماعيلية يوم ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢.. ذلك اليوم الخالد.. الذي لم تكد تطلع شمسه. حتى كانت فوهات المدافع والدبابات مصوبة إلى كل مصدر.. تقصف الجماد والحيوان والنبات.. والإنسان.. بلا رحمة.. ويسقط من الموظفين خمسة وستون شهيداً.. بخلاف الجرحى.. وتأتي عربات الإسعاف لنقل الجثث. وإسعاف ذوي الجراح. فيمنعها الغادرون.

أسلاك البرق تنقل الأنباء، والإذاعة مجلة بالسودا.ء فلا تسمع غناء أو لهواً أو طرباً– فبهذا هو يوم حداد. لا تسمع غير القرآن.. والأنباء. التي تعصف بالألباب.. وتكاد القلوب لسماعها تنخلع من الأضالع.. ويذيعها المذيع.. فتتحجر الدموع في المآقي.. ويعود كل مصري بذاكرته إلى الوراء ليحصى عدد الشهداء مذ اندلعت أول شرارة للجهاد.. فلا يجد من عقله مسعفاً.. فيطوي الجوانح على اللوعة والجوى.. لولا بقية من إيمان لقول الحق تبارك اسمه "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم.."

وصدق الشاعر:

وللحريـــــة الحمــــــراء بـــــاب   بكــــل يـــد مضـــرجة يـــدق

مقر القيادة

ولكي تستكمل الصورة عناصرها.. نتساءل: أين كان مقر القيادة الرسمية للمعركة!.. ما معداتها وتدابيرها؟.. من هو القائد الذي تحمل مسئوليتها؟. وما مدى إلمامه بفن التكتيك؟.. وما هي بوادر النصر.. المنتظر؟

والجواب الصريح على هذه الأسئلة ليس سوى ضحكه ساخرة ماكرة فقد كان مقر القيادة الرسمية للمعركة في مكتب وزير الداخلية فؤاد سراج الدين.. حيث المدافيء الكهربائية عن يمين وشمال.. وآلات التكييف من فوقه ومن تحته.. والسيجار الكبير لا يفارق شفتيه إلا فترة وجيزة يحتسي فيه قدحاً من القهوة أو الشاي.. حتى إذا سئم المقام في هذا المكان.. أسلم جسمه الضخم للمصعد الكهربائي ليسلمه بدوره إلى سيارته الخاصة.. فما يستقر بها حتى يستسلم للراحة.. ويمضي في سبات عميق.. دقائق معدودات ينعم بعدها بالدفء الكامل والنعيم الشامل في قصره المنيف.. بحى (جاردن سيتي).. ومن هناك تلاحقه الاستفسارات.. وهل هو بحاجة إلى هيئة أركان حرب.. يتبادل معها الرأي والمشورة..؟ أليس هو الدينامو المولد لجميع تشكيلات الوفد..؟ ألم يهتف باسمه بعض المأجورين في فتنة جمارك الإسكندرية سنة ١٩٤٧ قائداً أعلى للجيش؟!..

ليس في الأمر إذن ما يدعو لاستشارة حيدر.. أو نصرت.. أو وحيد شوقي.. مدير خفر السواحل.. وابن أخت النحاس.. بالتليفون.. نعم بالتليفون.. من بيته تارة.. ومن مكتبه تارة أخرى.. قاد المعركة.. الجنرال سراج الدين..

بالتليفون.. كان يصدر أوامره.. لأن التليفون من "الطرق السلمية المشروعة".. وإلى سراج الوفد.. يرجع الفضل في اكتشاف هذا السلاح الحديث في فن التكتيك..

بالتليفون.. قاد سراج الدين المعركة.. التي دارت رحاها وحمى وطيسها في القنال.. وكان مركز قيادته القاهرة.. وبين القاهرة والقنال.. أميال وأميال..

بالتليفون.. يستصرخه أهل القنال.. وحامية الأمن بها.. فيتكرم بإرسال ألف جندي من بلوكات نظام الأقاليم.. ليقفوا في وجه ٨٦ ألف.. بالعتاد الكامل.

بالتليفون.. أصدر أوامره الصارمة الجازمة.. فكلما ضج الإنجليز بالشكوى. من نشاط الفدائيين. وهرعوا إلى سراج لدين.. ليحميهم في منطقة القنال.. بعث بجنود البلوكات هذه. لمعاونة بوليس مصر هناك على حماية اللصوص. الغادرين. الذين استولوا على باب الدار بالقوة.. وصرعوا أبنائي أمام عيني.. ثم يقال لي: رحمة باللصوص.. رحمة بالسفاحين.. يا مظلوم.. يا مفجوع!

خيرزانات سريعة الطلقات

بلغ الحرص من سراج الدين.. على مبدأ. الطرق السلمية المشروعة أنه لم يسمح لجنود البلوكات بحمل السلاح.. وقد سبق لحكومة الوفد سنة ١٩٤٤ أن أدرت قراراً بتسيلم كل مواطن ما معه من سلاح أيا كان نوعه، إلى أقرب محل بوليس.. وإلا..

هكذا أراد الإنجليز.. وهكذا فعل الوفديون..

واليوم.. تدور المعارك الطاحنة.. في القنال.. فيكون الزاد والعتاد.. جنود بلوكات لنظام.. يحملون أحدث أساليب الدفاع.. خيرزانات سريعة لطفات.. اكتفاء بها وبما في أيدى بوليس المنطقة من خيرزانات.. وبنادق من طراز (لي أنفليد).

وأذعن الجنود.. على مضض. بل على أمل خطف بندقية كل جندي إنجليزي يصادفه.. يحتال في الحصول عليها.. وهو نائم أو سكران.. وما أكثر البنادق التي خطفها جنودنا من جنودهم.. أولئك السكارى الذين لم نسمع منهم غير العويل والبكاء، من أهوال الفدائيين.

ويشكو (إكهام) إلى (سراج الدين) شكوى قائد إلى قائد، بأن المصريين خطفوا بنادق البريطانيين، فلا يملك سراج الدين إلا أن يأمر في الحال برد البنادق المخطوفة، كعربون للصدافة الأنجلو وفدية.

وتنفد ذخيرة جنودنا، كما تنزف دماء شهدائنا ويتلقى سراج الدين طلباً إثر طلب، لإرسال ذخير، فيكون الرد خالصاً: لديكم العصى والنبابيت، وفي هذا الكفاية، لصد هجمات غيلان (سيدة البحار) مجتمعة في البر والبحر والجو على السواء، يقول لهم: موتوا، دفاعاً عن سراج الدين وآل سراج الدين، وإياكم أن تسلموا أو تستسلموا.

ألقاه فـي ألـيم مكتوفاً وقـال لـه   إيـــاك إيـــاك أن تبتـــل بالمـــاء

بوليس الإسماعيلية، يرفض بكل إباء وشمم إخلاء دار المحافظة، ويتحدى الإنذار البريطاني بهدمها وحرقها بما فيها على من فيها، وتدكها المدافع دكا متواصلاً وبلا هوادة، ورجالنا صامدون صابرون لا يبالون بقلة ما معهم من رصاص، ولا يعبأون بكثرة ما عند العدو، عدة وعديداً..

ويسقط الواحد من رجالنا إلى جوار أخيه شهيداً أو جريحاً، وقد أبى التسليم والاستسلام، والمحافظ يكاد يمزق التليفون وهو يستصرخ "جنرال القاهرة" فيكون الرد طبعاً: موتوا ولا تستسلموا، وتنتهي المكالمة... ولا حياة لمن تنادي.

صحيفة السوابق

سودي واحكمي يا بريطانيا

مرة أخرى.. نقول للقاريء الواعي.. إن هذه الصفحات.. لا تجتمع لتؤلف كتاباً في التاريخ. وإن كانت تعتمد في تفاصيلها ودقائقها عليه.. فهي صفحات.. ترى إلى خلق "فكرة". تميعت طويلاً.. حتى تبلورت.. فلها على كل مواطن حق التعميق.. في مجرى الدم من العروق..

وتبين فيما ذكرنا. أن الفدائيين وحدهم هم الذين كانوا وقود المعركة بالاشتراك مع جنود البوليس النظامي والاحتياطي..

وتبين لكل ذي عينين وأذنين أن الوفديين لم يكونوا يتوقعون ذلك.. لأن الأطماع قد طمعت على أبصارهم، فسلبتهم نعمة بعد النظر.. وتقدير العواقب. لذلك لم يحتاطوا للمعركة.. ولم يفتحوا لها في ميزانيتهم حساباً جارياً.. أما البرلمان.. نوابه وشيوخه.. فلم يتخلف عن ركب الحكومة.. تصفيق حاد.. وهتاف متواصل..

وهناك في لندن.. كان نشاط الفدائيين في القنال.. هو الشغل الشاغل لدوائر (دوننج ستريت).. فالأمهات والحلائل البريطانيات

بسمعن بأنباء الصيد الذي يظفر به كل يوم فدائيو القنال.. فيجهشن بالبكاء. ويتظاهرن في الشوارع والميادين ونحت شرفات الحكومة ومجلس العموم. هاتفات.. أو حاملات لافتات "ردوا إلينا أبناءنا وأزواجنا".. ولا ننسى أن أرواح الشكالى والأرامل لم تكن قد التأمت بعد.. منذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها..

ولكن دوائر لندن الرسمية.. العسكرية.. تمضي فيما تورطت فيه.. لهذا كان تصريح (روبر تسون) صدى للتحدي للسافر.. ورد فعل مضارع لنشاط الفدائيين.

لقد حرص الجنرال (روبرتسون) على أن تكون (فايد) المصرية.. مركز قيادته العامة للقوات البريطانية في الشرق الأوسط.. كما حرص على ألا تشرق شمس سنة ١٩٥٢ حتى يعقد مؤتمراً صحفياً.. وضع فيه النقط على الحروف.. وإن كان المصريون- بفطرتهم- يستطيعون قراءة الحروف من غير نقط.. قال (روبرتسون) في هذا المؤتمر:

إن الحكومة البريطانية- كما أوضح وزير الخارجية مراراً- مصممة على المضي في تنفيذ مقترحات الدول الأربع، التي أمل أن تشترك فيها مصر اشتراكاً كاملاً على قدم المساواة مع الدول الأخرى، وإلى أن يتم مثل هذا الإجراء، ستحتفظ القيادة العامة بمركزها في منطقة القنال وتحافظ على حرية الملاحة في قنال السويس: الممر البحرى الدولي، لا لأي سبب يتصل بمصلحة خاصة تقوم على الأننية، بل مساهمة منا في

الدفاع عن العالم الحر، وإنه لمن الخطأ الجسيم أن يتصور أي شخص أن الضغط والإرهاب مما لهما من عواقب محتومة سيؤثران بأية حال في تصميمنا، وإذا لزم الأمر سنمضى في خطتنا شهراً بعد شهر بل لمدة أشهر عند الاقتضاء، وسنواجه القوة بالقوة، ولن نستخدم من قراتنا أكثر مما يتطلبه الحال، ولدينا قوات كافية تحت إمرتنا، وتؤيدنا دول أخرى..

أقر الخصم وانقطع النزاع.. أقرت بريطانيا بنفسها على نفسها.. ودلت على نفسها حية البحر، فها هي تعلن على لسان (روبر تسون) المتحدث الرسمى باسم القيادة العامة لعصابة القراصنة المتآمرين على الشرق الأوسط تعلن عن اتفاق تم فعلاً بينها وبين دول أخرى تدور في فلكها، وللضغط على مصر لقبول الانضمام إلى حلف ظاهرة "الدفاع المشترك" عما أسمته (العالم الحر)، وحقيقة المراد منه شطر العالم إلى معسكرين: على رأس كل منهما فريق من الدول الكبرى، تصبح سائر الدول المختلفة ذيولاً لها، وبمعنى أدق، تصبح مخازن تموين، وقواعد شن الغارات والهجمات، وبهذه الوسيلة تضمن بريطانيا الجائعة غذاء شهياً رخيصاً لبطون رعاياها، وآذنابها، وجيوشها المرتزقة المستهلكة في إنتاج المدمرات المهلكات، التي ستقضى عليها هي قبل استخدامها في إبادة غيرها من الشعوب المحبة للسلام..

تريد الحية الرقطاء، أن تمديدها بالسلام إلى مصر، بعد أن حملت الفأس الزرقاء، وأهوت بها فوق مصر..

وتريد الحية الرقطاء، أن نخادع مصر، وتلهيها عن عدوانها، والدماء لم تجف سيولها من أرض المعركة..

ولكن مصر لا تنسى ذلك المثل القديم، كيف تخالفني وهذا أثر فأسك؟!".

ليس لمصر في هذا المعترك ناقة ولا جمل، ومع ذلك عليها لبريطانيا دين قديم، وهو أن وزارة الخارجية البريطانية بالاشتراك مع وزارة المستعمرات والجهات العليا في مصر، قد نجحت في المجيء بحكومة النحاس بعد طول الغياب، وحكومة النحاس، هي حكومة الشعب، حكومة الجلابيب الزرقاء، جيء بها، وأنف فاروق في التراب، أليس ذلك الدين في عنق مصر لبريطانيا، جاءت اليوم تتقاضاها إياه..!

وإذا كان تصريح (روبرتسون) قد نشر في الصحف المصرية في أول يناير سنة ١٩٥٢، يحمل في خطوطه العريضة هذا الإصرار العنيد، وذلك الإنذار بالوعيد، فماذا كان موقف مصر منه حكومة وشعباً؟.

لقد أصر النحاس على عدم بحث أي اقتراح الدول الغربية إلا بعد الجلاء، ونشرت الصحف هذا المعنى من مصدر غير مسئول، ولنذهب في التفاؤل إلى أبعد مدى، ولنتساءل في هدوء عن مغزى هذا الرد الشبيه بالرسمي.. فهل يدل مفهومه على شيء من اهتمام الوفديين بالأمور؟ الواقع لا.. فهم ينظرون إلى سياسة بريطانيا نحو مصر..

باستهتار وتخاذل نظرة كلها ميوعة وإنهيار.. وموقف لا جدية فيه كهذا.. لابد أن يكون له ما وراءه.. لم لا.. وخطاب الإفالة على الأبواب..!؟

وألقى (روبرتسون) بالقفاز في وجه حكومة النحاس.. بهذا التصريح الخطير فيما يتعلق بالمحافظة على حرية الملاحة في قنال السويس الممر البحري الدولي من أين لك هذا الحق يا (روبرتسون)؟ وما هو السند القانوني.. الذي بموجبه تحافظ على قناة مصر.. ومصر ذات سيادة واستقلال.. ولها حكومة وجيش.. ولها حدود في هذه الأرض.. لا في المريخ ولا في القمر..! ولكن هكذا كشر الاستعمار عن أنيابه.. وكشف عن مستور نواياه.. فأنكر وجود ما يسمى (الدولة المصرية).. وأنكر أن هذه القناة مصرية.. لحماً ودماً.. رملاً وماء.. مصرية طبعاً.. وعقلاً.. وقانوناً..

ومتى احتكمت بريطانيا إلى الطبع.. أو العقل.. أو القانون؟.. إنكارها هذا كله.. إنما يشف عن ثوب رقيق مهلهل.. لا يكفي لحجب حقيقة المؤامرة التي تيستها بريطانيا ضد مصر.. لاحتلالها.. واقتسامها مع دول المؤامرة.. يا للداهية!؟

وفم الدهشة..! ما مصر بالنسبة لألمانيا وقد تمزقت بين أشداق إنجلترا وفرنسا وأمريكا.. وروسيا..؟! ما مصر بالنسبة للصين.. وبها ربع سكان العالم. باتت إحدى الدول الكبرى.. وأصبحت وهي أجزاء وأشلاء..؟!

وهذا هو الاتجاه الحديث للاستعمار. لا تنفرد دولة استعمارية دون غيرها من الدول أعضاء العصابة في استعمار دولة. وإنما تقتسمها جميعاً فيما بينها.. فهذه نأخذ قطاعاً شرقياً.. وتلك قطاعاً غربياً.. وأخرى شمالاً.. ورابعة جنوباً.. وهكذا.. "استعمار مشترك.." يضمن الدوام والاستقرار.. للشركاء.. على صدر الفريسة..

فهل كلف النحاس نفسه، أو كلف وزير خارجيته أو سراج وقده الوهاج.. الجنرال المدلل والقائد العام لمعركة القنال.. هل كلف واحد من هؤلاء أو غيرهم نفسه عناء الرد على هذا الخطر الداهم؟، أم تراهم أجمعين قد اكتفوا بما صرح به زعيمهم من قبل في المحطات الواقعة بين الاسكندرية والقاهرة، والشعب يرددها في تهكم وسخرية، والغصة ملء الحناجر،!! نعم.

في مصر "كل شيء على ما يرام... "وأعددنا لكل شيء عديته". وفي لندن ينشدون ويرددون في أعياد الميلاد، ومع هدايا (بابا نويل): "سودي واحكمي يا بريطانيا".

٥ فبراير.. نعم

الحق أن الوفد كان ذكياً كل الذكاء سنة **١٩٤٢**، أما في سنة **١٩٥٢** فقد خانه هذا الذكاء، لأنه حزب، والحزب كأي كائن حي، ينمو ويترعرع ثم يذبل، يبدأ شبابه قوياً فتياً، ثم يختم شيخوخته كهلا ضحلا،

وعشر سنوات ليست بالقليل في حياه الأخزاب، مع كر الغداة ومر العشي.

في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢، جاءت حكومة النحاس على ظهر دبابات (مايلز لامبسون)، وماذا في هذا؟، أليست الغاية تبرز الواسطة؟! كما يقول (مكيانللي) في كتابه "الأمير"؟!، ثم أليس "الوفد عقيدة الأمة" كما كان ينادي عبد الفتاح الطويل؟!، إذن فلنضحك على الأذقان، ولنعد إلى الأكاذيب والأباطيل، وخداع الشعب من أصعب الأمور إلا على حزب الوفد، وكل شعب ماكر إلا الشعب المصري، طيب القلب..

فها هي ذي الصفحة الأولى من جريدة (المصري) لسان حال الوفد المصري.. والتي شعارها قول سعد زغلول "الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة".. طلعت هذه الصحيفة الغراء في هذا الصباح الأغر.. على قرائها.. بخطابين بالخط العريض جداً جداً.. في إطارين كبيرين جداً جداً يملآن.. الصفحة كلها أو أكثر،، بحيث لم يعد ثمت مكان لنشر أي إعلان إلى جوارهما، اللهم إلا (مانشيت) الجريدة الملون بالعلم المصري الأخضر الحبيب إلى كل قلب، الذي لوثه الوفد.. وصحف الوفد.. بالإفك والضلال..

كان على اليمين من الصفحة خطاب النحاس إلى ما يلز لامبسون يذكره فيه بأن مصر دولة ذات سيادة واستقلال. ويظهر أن مايلز لامبسون، قد تذكر في الحال فرد بخطاب لا يزيد في كلماته عن خطاب

النحاس واحتل مكانه إلى جانبه يؤكد فيه لصاحب المقام الرفيع اعترافه التام باستقلال مصر التام، كما يؤكد له عدم التدخل في شئونها الداخلية.. اقرأ معي أيها المواطن الحر هذين الخطابين المتبادلين بنصيهما واحكم بنفسك:

أولاً/ خطاب النحاس:

"إلى حضرة صاحب السعادة السير مايلز لامبسون السفير البريطاني في مصر بالقاهرة".

صاحب السعادة:

لقد كلفت بمهمة تأليف الوزارة، وقبلت هذا التكليف الذي صدر من جلالة الملك بماله من الحقوق الدستورية، وليكن مفهوما أن الأساس الذي قبلت عليه هذه المهمة هو أنه لا المعاهدة البريطانية المصرية، ولا مركز مصر كدولة مستقلة ذات سيادة يسمحان للحليفة بالتدخل في شئون مصر الداخلية، وبخاصة في تأليف الوزارات أو تغييرها.

وإني أؤمل يا صاحب السعادة أن تتفضلوا بتأييد ما تضمن خطابي هذا من المعاني، وبذلك تنوطد صلات المودة والاحترام المتبادلين وفقاً لنصوص المعاهدة.

وتفضلوا يا صاحب السعادة بقبول فائق احترامي؟

٥ فبراير سنة ١٩٤٢ مصطفى النحاس

ثانياً/ رد لامبسون:

"لي حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا" رئيس مجلس الوزراء، القاهرة.

يا صاحب المقام الرفيع:

لي الشرف أن أؤيد وجهة النظر التي عبر عنها خطاب رفعتكم المرسل منكم بتاريخ اليوم، وأن أؤكد لرفعتكم أن سياسة الحكومة البريطانية قائمة على تحقيق التعاون بإخلاص مع حكومة مصر كدولة مستقلة وحليفة، في تنفيذ المعاهدة البريطانية من غير أي تدخل منها في شئون مصر الداخلية، ولا في تأليف الحكومات أو تغيرها.

وإني لأنتهز هذه الفرصة لأؤكد لرفعتكم فائق احترامي،

٥ فبراير سنة ١٩٤٢ مايلز لامبسون

وهكذا اتفق المؤلفان الكبيران، على إخراج هذه الدراما العنيفة لا لشيء إلا الاستهلاك المحلى، وقد شهد هذه الدراما طبعاً شعب مصر الطيب القلب على مسرح جريدة المصري، فأغرق في الضحك، وتغامز قطبا الرحى فيما بينهما، وأخرج كل منها للآخر لسانه بحيث لا يراه.. وحتى لا تنسى، يجب أن نعلم حقيقة باهرة هي أن الوفد نفسه هو الذي

اقترح الرد البريطاني على السفارة البريطانية في القاهرة وذهب النحاس بنفسه ومعه رجال الوفد إليها، وخرج الخطابان مع أمر تشكيل الوزارة من "قصر الدوبارة" في وقت واحد، وهكذا يكون توقيت المسرحيات. [1]

برتقال بدمه

بهذه العقلية التافهة استطاع النحاس أن يخفي "الجريمة" التي ارتكبها يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢، ولم تزل آثار سحجات يسديه وفي وجهه كدليل صراعه مع الشعب الذي سفك دمه بالأمس، وتركه فاقد النطق، ووضع التاريخ يده "على جسم الجريمة" الشنعاء، ولكن خطفها الغراب من يده وطار..

ومرت الأيام، واعتمد الوفديون على عامل له خطورته، في تاريخ مصر الحديث، هو عامل النسيان.

لماذا إذن عجز الوفد– بعد عشر سنوات من حادث ٤ فبراير– عن ابتكار وسيلة جديدة مماثلة لمسرحية (الخطابين المتبادلين).؟!. قلنا إنه شاخ وباخ، واشتعل الرأس منه شيباً، ثم إن الأحداث المستجدة، كانت أكبر من الوفديين، وسائر المنتمين إلى الأحزاب، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، لهذا لم نسمع باحتجاج حزب؛ أو هيئة، أو نقابة.

([1]) واضع صبغة الخطابين هو مكرم عبيد سكرتير الوفد، وقد اعترف هو بذلك مفاخراً، وذكر أن نجيب الهلالي قد هناءه على هذا التوفيق، وأن الوفد جميعاً قد وافق على الفكر، (انظر جريدة "الكتلة" عمود ٧ صفحة ٣ في ٢٥ يونية سنة ١٩٤٨، مرافعة مكرم عبيد عن سعيد توفيق).

أما الشعب، الشعب العريق في الكفاح، منذ أقدم العصور، ضد الهكسوس، والمغزل، والفرس، والترك، والشراكسة، والأرناؤوط والفرنسيين، والإنجليز، الشعب الذي دحر الإنجليز في رشيد وخورشيد، بالعصى والنبابيت، هذا الشعب هو هو بعينه لم يتغير، ولم يتحول فقد ظل يمطر اللصوص القراصنة، المرتزقة المستأجرين، في منطقة القنال وابلا من النيران، فباتوا وأصبحوا، لا يسمع لهم إلا عواء الكلاب، وولولة لنساء، لأن الفدائيين قد اكتظمت بهم (كتائب التحرير) حتى صاروا عدد الرمل والحصى والتراب.

والإنجليز، الذين اختفى عن أنظارهم منذ أسابيع، الباعة المصريون ينادون على الخضر والفاكهة والدجاج، كادوا يموتون جوعاً، لولا أن نحوا من خلب الأسلاك الشائكة من بعيد، غلاماً يدفع أمامه عربة يد، والبرتقال مكوم فوقها على نحو ظاهر.

وهو لابد أن يكون برتقالاً بدمه. وهو النوع الذي يحبه الإنجليز حباً جماً، لامتلائه بلون الدم، وما أشد الإنجليز حرصاً على سفكه، ويدفع الغلام عربة خلف الأسلاك، فيتكالب عليها الجياع لشراء ما معه، فيقصون الأسلاك، ليدخل بالعربة. وسط خيامهم، ويلتفون حوله، ويساومون، ويتضاحكوم ويتغامزون، والغلام يأبى ويرفض وهم يصرون، فيترك لهم العربة بما فيها، مغاضباً متباكياً، ولا يكاد يغيب دقائق حتى تكون الألغام التي دسها في قاع العربة قد انفجرت في عشرات الجنود، وتركتهم دماء تجري، وأشلاء تتطاير.

كانت هذه هي كلمة مصر، كلمة (البرتقال الذي بدمه).. كلمة ذات معنى ومغزى، كلمة تحفر مجراها العميق في حياتنا الحاضرة والمستقبلة، وهكذا يقول الشعب كلمته، لا، بل يعمل فعلته، في كل لحظة من ليل أو نهار، في كل شبر، وفي عنف وإصرار، وجرأة وإقدام، يمضى إلى غايته، يستعذب الموت.. بسترخص الحياة، يأبى الضيم والهوان، ويعمل لحسابه الخاص، لا لحساب حزب. أو حكومة أو عرش، ولا دفاعاً عن حسب أو نسب، ولكن دفاعاً عن شرف وعزة وحرية وكرامة، وأما أوامر الحكومة، فلم يعد لها في القائمة حساب، ..و..

إن عـادت العقـرب عـدنا لهـا وهـا هـي النعـل لهـا حاضـرة

***

كان (روبرتسون) حريصاً على عقد مؤتمره الصحفي في (فايد)، ليكون تصريحه هدية بريطانيا العظمى إلى العالم الحر، في مطلع العام الجديد، وهكذا تكلمت بريطانيا، وظنت وظن معها حلفاؤها وأنابها أنها إذا تكلمت فيجب ألا يكون هناك تعقيب على ما تقول.

ولكن غاب عن فطنة بريطانيا، وحكومة الوفد، وفاروق والحاشية، مغزى دقين لخبر متواضع نشرته الصحف في مكان متواضع وفي نفس اليوم الذي نشرت فيه تصريح (روبرتسون).. هذا الخبر الذي لم يحظ من بعض الصحف طبعاً لا كلها، إلا ببضعة أسطر، مفاده: "أن جميع

القوات المسلحة المصرية قد تم اشتراكها في نادي الضباط.. كما تم تعديل قانون النادي".

هذا هو الخبر الذي مرت عليه أبصار القراء مر الكرام، أما العالمون ببواطن الأمور، فما كان مثل هذا الخبر، ولا أمثال أمثاله بالذي يعنيهم في قليل ولا كثير، وفات الجميع أن "الجنين" قد بدأ يتحرك في بطن أمه.. وما كان لمثلي أو مثلك أيها القاريء الواعي، أن يطلع على الغيب، فالله وحده هو الذي يعلم ما في الأرحام.

على أن حكومة الوفد قد أصبحت في ورطة يرثى لها. فقد عزلها الشعب عن طريقه، ونحاها بالقوة المعنوية عن هدفه، وكل شيء على ما يرام.

وما إن يرى جنرال (جورج أرسكين) ذلك حتى يردد خلاصة تصريح روبرتسون الذي أدلى به للصحفيين منذ ثمانية أيام، مؤكداً أن نظر النحاس الإنجليز باقون في القنال. وعلى قلبها إلى طولون..

وكان هذا رداً خالصاً على تصريح النحاس الشبيه بالرسمي، الذي طالعتنا به الصحف غداة نشرها لتصريح روبرتسون، لقد أصر النحاس على عدم بحث أي اقتراح للدول الغربية إلا بعد الجلاء.. والجلاء في نظر النحاس معناه إبدال معاهدة بمعاهدة، وتنازلا منه وتكرما، رضى بما لم يرض به صدقي سنة ١٩٤٦، في مفاوضاته مع بيفن..

ورأت روسيا عيانا بيانا كيف أن هذا الضغط المتوالي من جانب بريطانيا على مصر، لأرغامها بالقوة المسلحة على قبول "الدفاع

المشترك" إنما هو خنجر مسموم مسدد إلى صدر الاتحاد السوفيتي أولاً وبالذات واتهمت الدول الغربية اتهاماً واضحاً باستعدادها لاحتلال الشرق الأوسط، وهكذا تكلمت روسيا..

بريطانيا.. تتراجع

عاش هذا الاتهام الروسي، أقصد هذا الصاروخ الموجه أسبوعين كاملين في الفضاء، وإذا بيوم **٢٤** يناير سنة **١٩٥٢** فتوحى الحكومة إلى الصحف بنشر خبر يفيد أن مصر تطلب أسلحة من روسيا، ويعقب ذلك حملة منظمة من الشائعات الوفدية أن القمح الوارد إلينا من روسيا والذى هو في الطريق إلى الاسكندرية، يحمل في طياته أسلحة وذخائر، لا عد لها ولا حصر.. تريد بذلك حكومة الوفد.. كسب الوقت.. وتخدير الشعور الوطني.. الذي نفر منها ولم يعد بينها وبينه إلا هوة سحيقة.. وجفوة بالغة.. لا يمكن أن يتخطاها أي عملاق..

ويبدو- والله أعلم- أن نشاط كتائب التحرير في القنال.. كان له أكبر الفضل على العالم الحر.. فقد تسبب في (تجميد) تلك المؤامرة الاستعمارية تحت ستار "الدفاع المشترك"..

وإذا صرفنا النظر قليلاً عن ذلك الطبل الأجوف الذي حمله على كرشه كل من روبرتسون وأرسكين وأكهام.. والتهديد بالحديد والنار.. والقبض على عنق قناة السويس، إلى غير ذلك.. فإننا نرى أن الغول

الأكبر قد انكمش.. وأن الجبل قد تمخض فولد فأرا.. وكان للأسف ميتا.

وهذا هو الذي حدث.. تراجعت بريطانيا.. وانسحبت بانتظام.. وبنفس البرود المعروف عن ساستها المحنكين.. ولكن لماذا؟.. لأنها قامت بعملية جس النبض للسياسة الروسية قبل أن تقوم من موسكو وتنفجر في نيويورك.. وإذا بالدول الضالعة في المؤامرة البريطانية تسارع إلى إعلان براءتها من الاشتراك في المؤامرة.. قبل أن تلصقها بها روسيا.. واتفقت هذه الدول فيما بينها على عدم فرض الأحلاف العسكرية على شعب أية دولة.. رغم أنفه.. وتعمدت حليفات بريطانيا تلك.. أن تعجل بهذه المناورة المفضوحة.. قبل أن ينفجر اللغم الموسكوفي.. في هيئة الأمم المتحدة بخمسة أيام.. حتى لا تتعرض هذه الدول لشظايا اللغم الزمني.. ولا يعدو دويه غير ما تخلفه أي قنبلة صوتية.

وعلى كل حال.. فإن بريطانيا مهما تحاور وتداور.. ومن ورائها شريكاتها بل أذنابها.. فإنها هي هي بريطانيا.. لا عهد لها ولا ميثاق.. بل تاريخ مفعم بالمخازى والآثام.. وسواء علينا ركبت رأسها.. أو أحنت ظهرها للعاصفة.. وسواء صممت على الاحتلال.. أو تراجعت عنه.. أمام الشعب الفولاذي.. وأمام الاتهام الروسي.. وأمام مظاهرات لندن.. وأمام الموجة الكاسحة.. ينبيء عنها مرصد السياسة الدولية.. فقد تكلمت روسياي.. وصدقناها.. وصدق الشاعر:

إذا قالت (حزام) فصدقوها فإن القول ما قالت (حزام)

العرش.. في خطر

ويكا.. ويكا

الجو مكهرب.. في الأيام القليلة المتقاربة من منتصف يناير.. العواصف عانية.. والغيوم متكاثفة.. والظلمات بعضها فوق بعض.. والرعود تزمجر على إثر بروق خاطفة.. تمزق طيالس السموات.. والسحب متخمة بشحنات.. وليس هناك مانعة للصواعق..

الجو مكهرب.. حقا.. لأن شحنات متباينة بدأ يحتك بعضها ببعض.. تصميم (أرسكين) على البقاء في القنال بلا جلاء.. عزل المنطقة الدامية عن مصر.. وإعلان الأحكام العسكرية فيها.. الاتهام الروسي.. عنف المعركة.. مجزرة التل الكبير.. نسف القطارات.. بالألغام.. شهداء الجامعة.. إطلاق الكلاب على الفدائيين وصلبهم على جذوع الأشجار.. وإعدامهم رمياً بالرصاص.

في هذا الجو المكهرب.. وعلى مسرح الحوادث.. ظهر فاروق.. بعد أن طال احتجابه من خلف الكواليس.. وكان ظهوره بمثابة "نقطة التحول" في الكفاح.

صحيح أن ظهوره لم يكن مفاجئاً. وكان لابد أن يظهر.. ليقوم بدوره هو الآخر.. في مسرحية خيوطها بأيدي المقادير.. وقد سحبته الأحداث من رجله رويداً رويداً، إلى حيث لا يدري ومن حيث لا يدري، ولكنه سعى إلى حتفه بظلفه.. غير مدرك ما للبداية من نهاية.. وما للمقدمات من نتائج.. وما للرواية..– أي رواية– من ستار في الختام..

كان بدء ظهوره فاروق.. في الأسبوع الأخير من ديسمبر سنة ١٩٥١.. عندما صدرت أوامره السامية بتعيين (حافظ عفيفي) رئيساً للديوان الملكي.. وشمول (إلياس أندراوس) بلفتة ملكية نقلته إلى المنصب الكبير الذي أعفى منه حافظ عفيفي في بنك مصر.. وتعيين (عبد الفتاح عمرو) سفيرنا المسحوب من لندن مستشاراً للديوان الملكي.. هذا ما حدث..

هذه التعيينات.. أي حركة التنقلات هذه.. ما شأنها والمعركة؟.. ماذا تفيد القضية؟.. وكيف.. وهل.. ولماذا.. إلى آخر المعروف من ألفاظ التساؤل.. وكلها دارت على كل لسان.. وارتسمت علامات الاستفهام والتعجب.. على كل وجه..

ولنترك هذه الحملة الاستفهامية الاستغرابية.. تمر إلى غايتها.. ولنتخير سؤالاً أو استغراباً واحداً لا غير.. وهو:

هل سيتوجه النحاس– كما فعل سنة ١٩٣٧– في هيل وهيلمان.. ليسجل احتجاجه على تصرف القصر فيما يتعلق بتعيين علي ماهر رئيساً

للديوان بدون أخذ رأي الحكومة.؟ وبمعنى آخر.. هل سيقول النحاس للصحفيين هذه المرة كما خرج في المرة الأولى من القصر بخفي حنين– قولته المشهورة "نحن مبسوطون"؟!.. إن شيئاً من هذا لم ولن يحدث فقد كتم الوقد الخنجر الملكي في صدره.. وعاد يلعق جراحه.. خوفاً من شماتة الأعداء.. وانحشر في مأزق لا يحسد عليه.. ولا ملجأ ولا منجي من الله إلا إليه..

وازداد الموقف توتراً.. وصار أعقد من ذنب الضب.. فكان لابد من عامل مستجد.. من شأنه تحويل هذا الفيضان الجماهيري الهادر.. وصرفه إلى وجهة أخرى.. وإلا اكتسح كل ما يعترض هديره وزئيره..

وقديماً قال (لورد كرومر) "المصريون قوم يجمعهم زامر وتفرقهم عصا".. وتذكر الأذكياء هذه الحكمة الغالية.. وأرادوا استغلالها في هذا الظرف.. بصرف النظر عن فارق التطور..

فمن هو ذلك الذكي الذي يستطيع تعليق الجرس في عنق الشعب الكبير؟! أما الفيران فهي هي الفيران.. لهذا وقع الاختيار على أكبر رأس في البلاد.. فاروق بالذات.. وكان اختياراً موفقاً لا شك.. فياله من صيد..! إنه حقاً (كبش الفداء)..

أما المخرج.. فإنه للأسف الشديد– لم يتخير الوقت الملائم.. لعرض هذه المسرحية.. لأن المقادير لابد أن يكون لها أولاً كل اعتبار.. ودعك من قولهم:

دع المقادير تجري في أعنتها ولا تبيتن إلا خالي البال
ما بين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال

وباتت الألسنة وأصبحت.. تلوك سيرة فاروق.. في إطار محيط بمخازيه.. وفي سلسلة من الماضي والحاضر.. سلوكه الشخصي.. مغامراته النسائية.. مقامراته.. مجونه وخلاعته.. سهراته في الأوبرج. رحلاته إلى دوفيل.. اختطافه الحرائر من خدورهن.. في حراسة إبراهيم عطا الله.. طلاق فريدة الملكة.. تلويث القصر بالدعارة والفجور. فسخه خطوبة ناريمان صادق من زكي هاشم.. وزواجه منها.. استهتار نازلي الملكة الأم في الخارج.. زواج أخته المسلمة من رياض غالي المسيحي. اغتياله محمد علي أيوب.. ليخلو له الجو.. السطو على الأعراض في جنح الظلام. ادعاؤه النسب الشريف للاستيلاء على الأوقاف.. نزوعه إلى الاستبداد والعبث بالدستور والحكومات.

كل هذا وما إليه.. أسخط الشعب عليه.. فدوت الهتافات ضده.. في مظاهرات الشوارع.. وفي الحفلات السينمائية.. وفي رحاب الجامعات.. وأفناء المدارس.. واستنكفت الصحف من نشر ما سجلته الأسماع يومذاك. وسارت به الركبان.. "ويكا ويكا.. روح هات أمك من أمريكا" "إلى قوله: يا ابن الخولة".. "من لا يملك أمه. لا يحكم أمة". "خرجت الطهارة. من بيت الدعارة". "يسقط عفيفي.. واللي حافظ عفيفي".

وبداهة.. هذه الهتافات. أعدها للمظاهرات أخصائيون في التشكيلات الوفدية. وتبادل الوفديون فيما بينهم أسمى التهاني؛ فإن العرش قد تصدعت قوائمه،، واملأت جدران الشوارع والمنازل بالخط العريض "نصر من الله وفتح قريب".

فقد حان الوقت لخلع فاروق من العرش، والمناداة بمصطفى النحاس ملكاً على مصر، أو رئيس جمهورية على القل، وقلب نظام الحكم مما يحقق للإنجليز جميع ما يطلبون، ولم لا يطمع النحاس في العرش!؟ ألم يقلها الصعيدي محمد محمود "أنا ابن من عرض عليه العرش فأبى"؟!

ولم يكن الستار قد أسدل على فصل الختام، لهذا ظل الممثلون المكلفون بالفصل الأخير، من خلف الكواليس.

أفراح القصر

وفوجيء الشعب..

فوجئ الشعب، الذي كان يتدفق كالسيول الجارفة إلى معركة القنال، بدمه وماله، به ظمأ إلى حياض الموت، استشهاداً في سبيل الله والوطن، فوجئ الشعب، المتين– على ما به من جراحات وأحزان– لا على الشهداء الأبرار، الذين فارقوا دنيا الناس إلى جنة الخلد، مع النبيين

والصديقين والشهداء– ولكن على اتساع رقعة الحرب، على القلة الآمنة المؤمنة، على انتهاك الإنجليز الأوغاد حرماتنا ومقدساتنا.

فوجئ الشعب، بهذا النبأ، الذي زعموا أنه هناء محا ذاك العزاء. فوجئ العشب، بمولد "الأمير أحمد فؤاد"، نجل فاروق من ناريمان، طالعتنا به الصحف في صباح ١٧ يناير ١٩٥٢، هذا المولود الذي جعله الله قرة العين، وبهجة القلب، لفاروق، وسليل الدوحة العلوية القولية.

وكان إعلان هذا النبأ بمثابة سن الدبوس الذي فجر كرة المطاط المنفوخة، فأخرج ما بها من هواء مضغوط.

وفاضت أنهر الصحف بالتهاني.. والأماني.. ودبجت الأقلام عقود المديح.. وبعد أن كانت أنباء المعركة تحتل الصفحات الأولى في الصحف اليومية.. إذا بها نتقهقر بانتظام إلى الصفحة السابة.

تمهيداً لإلغائها نهائياً.. وتخفيفاً من حدة التوتر.. الذي يمزق الأعصاب..

وفي اليوم التالي. تجود المكارم الملكية.. بثلاثين ألفاً من الجنيهات.. لأسر الشهداء.. علهم ينسون بها أحزانهم.. ويضمدون بها جراحه.. بمناسةب أفراح القصر.. وعلى النحو المعروف.. أدرك الشعب أن هذا المبلغ ممنوع من الصرف.

ومرة أخرى نقول: إن المخرج لم يحالفه التوفيق.. لأنه لم يحسن اختيار الوقت المناسب.. فإن إعلان هذا النبأ. أثار في العقول الباكنة.. حفائظ الثكالى والأرامل.. ومواجد الجرحى والأسرى. وأوجاع اليتامى والمساكين..

ومع ذلك.. أقيمت الموائد الملكية بالقصر.. وفي أنحاء البلاد.. ابتهاجاً بمولد أحمد فؤاد. واستمرت الولائم من ١٩ يناير حتى بلغت أقصى البهجة، ونهاية الأرب.. يوم ٢٦ يناير. يوم حريق القاهرة..

في هذا الأسبوع، أسبوع الموائد والولائم، تعطلت المدارس والمعاهد والجماعات، وخرج الطلبة والطالبات، هاتفين بالألفاظ النابية، المعادية، وهي وإن تورعت الصحف عن ذكرها.. فقد نوهت بها، وصبت المظاهرات جامات سخطها على فاروق، وناريمان، والنحاس، وسراج الدين، والإنجليز طبعاً.

هذا ومعارك القنال تعنف وتعنف ساعة بعد ساعة، فالإنجليز يهبطون بالمظلات على الإسماعيلية ويحتلونها بالدبابات والمدافع الرشاشة، ويشردون أهلها، بينما كتائب أحمد عبد العزيز ومحمد فريد وخالد بن الوليد.. تنسف المخازن.. مخازن الذخيرة الحية في معسكرات أبي سلطان، تنسفها بلا هوادة وتشعل الحرائق فيها هنا وهناك، فلا تدرى مطافيء الإنجليز بأيها تبدأ ومن أيها تنتهي. وطارت

ألبابهم من العجب العجاب فمن أين للفدائيين هذه الذخائر وتلك المتفجرات؟ وأين أسلاكها وفنائلها؟ أين أولها وأين آخرها؟.

صمم الإنجليز على الوصول إلى جواب يشفي غليلهم وينقع لهيبهم، فبحثوا عن (خنافس) و(سلاطين) من الطراز القديم طراز سنة ١٨٨٢ فوجدوا محمود صبري كنج كما وجد أسلافهم عبد الله خنفس منذ سبعين سنة، هذا دلهم على معسكر عرابي في (التل الكبير) وذاك دلهم على مقابر (الإسماعيلية) فنبشوها واستخرجوا رفاتها، ورجعوا من معركة الموت بصناديق مليئة بالخيرات لم يأتمن عليها الفدائيون حكومة الأحياء، فأدعوها دولة الأموات.

دبابات تواليت

في هذا الأسبوع.. في هذه الظروف في هذه المجازر تشهد القاهرة عرضاً تاريخياً لوحدات من البوليس والجيش بالملابس والأزياء التي تعيد إلى ذاكرة فاروق أمجاد آبائه وأجداده القراصنة الفراعنة الذين ورث عنهم هذا "الجيش" كابرا عن كابر، الذين كانوا في (قوله) شذاذ آفاق وقطاع طرق ورؤساء عصابات، وبالأرناؤوط والدلاة، وبالرشاوى الدسائس، والحرائق والمذابح، وصلوا إلى (القلعة).

ثم ذلك في غفلة الزمن وعلى عين الاستعمار، وتلك حقائق.. ولدينا الوثائق. وليس هذا مجالها.

والدبابات أخذت زخرفها وأزينت بالأنوار الملونة، فكانت تبهج الخاطر وتسر الناظر، ولأول مرة في العالم كله تظهر الدبابات بالتواليت، أما كان جديراً بهم أن يحموا بها ظهور رجال البوليس وبلوكات النظام في الإسماعيلية وبورسعيد والسويس، بدلاً من الخيرزانات التي لا تسمن ولا تغني من جوع!؟ وإن كانت الأرواح قد انخفضت أسعارها- في خضم الغلاء- ألم يكن جديراً بهم أن يصدوا بهذه الدبابات جحافل الغدر في اكتساحها دور الحكومة ولاسيما المحافظتين المنكوبتين في المدينتين الخالدتين؟!

على كل حال خرجت الجماهير للفرجة على هذه الكرنفالات الساخرة، فعادت بآهات كتمتها في أعماق الصدور.. والشفاه لا تنبس.

فاروق.. يبكي

لم شبع سعار أرسكين.. على الرغم من الضربات التي استمر يكيلها لهذا الشعب الأعزل.. المنافح عن شرفه..

لم يشبع سعار أرسكين.. من إراقة الدماء.. وحرق المساكن.. ونهب المزارع.. وخطف البرتقال.. وانتهاك حرمات الموتى في أجداثهم..

ومع هذا الفتك.. وتلك الإبادة.. عمدت بريطانيا إلى أحد عملائها في الشرق الأوسط.. هو السيد نوري السعيد.. وكلفته بأداء دور

(المحلل).. أي القيام بدور الوساطة بين انجلترا ومصر.. كان ذلك قبل حرق القاهرة بيومين.. وفي اليوم التالي.. أى قبل هذا الحادث المشئوم بيوم واحد.. كشفت بريطانيا عن رغبتها صراحة في مفاوضة مصر على شرط أن تمنع الفدائيين من الاستمرار في أعمالهم الإرهابية.

وفي هذا اليوم. بلغ الملك أقصى درجة في الانهيار العصبي. وشعر بالأرض تغور بعرشه وتبتلعه.. وأحس بالأعاصير العاصفة توشك أن تطيح بالتاج من فوق رأسه..

وليس أدل على ذلك من موقفه الذليل المتخاذل.. أمام الضباط في الحفل المقام لهم يومذاك.. والدموع تنحدر من خلف منظاره الأسود.. ويقول لهم.. وهو يجهش بالبكاء "أهدى إلى الجيش أعز شئ عندي وهو ابنى"... آلآن وقد عصيت قبل؟!

كان هذا النطق الملكي السامى، بمثابة النهاية الأليمة، والدراما التي ختمت أفراح القصر، في ذلك اليوم تقدمت إحدى عشرة سفينة حربية من أكبر قطع الأسطور الإنجليزي، تحمل الزاد والعتاد من مالطة إلى مصر.. وتحتوي على لعب الأطفال.. وعلب الحلوى.. التي ستهبط على الشعب بالظلات.. فرحاً بخلع فاروق.. وبتولية النحاس ملكاً. وتتأزم الأمور.. بالطبع.. وتعلن الإذاعة نبأ استشهاد ثمانية وستين من رجال البوليس في مجزرة الإسماعيلية ذودا عن دار المحافظة. نفدت ذخيرتهم.. وطلبوا المزيد.. فأبى سراج الدين.. ورفع زملاؤهم راية

التسليم.. راضين بما قسم الله لهم.. آسفين على أن لم يلحقوا بالشهداء في عليين..

وترتفع حرارة الخطر.. وتعلن الحكومة حالة الطواريء في القاهرة.. مع تشديد الحراسة- الشفهية- على المرافق، ودور السينما، والملاهي، والمقاهي، والحانات. وتلغي الحفلات الساهرة، ولاسيما حفلة سباق الخيل بمصر الجديدة..

حداداً على أرواح الشهداء!!

كلا.. بل احتفالاً بحرق القاهرة..

العاصمة تحترق

رأس الجسر

كان يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ رأس الجسر.. في تكتيك الجنرال أرسكين.. وهو المل الذي طالما داعب خياله.. لتعود إنجلترا من جديد لاحتلال مصر.. إحياء لذكرى سنة ١٨٨٢.

لهذا أصدر أمره منذ أسوع سرا إلى فرقة من قواته تتكون من مائة جندى لحراسة السفارة البريطانية بالقاهرة، وأمر أيضاً كبار الانجليز بمغادرة العاصمة.. كما نصح لمحافظ بنك باركليز بنقل الودائع إلى سراديب تحت الأرض حتى لا تمتد إليها ألسنة اللهيب.. ولكن لماذا؟

أراد أرسكين خلق زوبعة في مصر.. من شأنها أن تسبب خلخلة في الأمن الداخلي.. وكان أرسكين يعمل ليل نهار.. سراً وعلانية لتحقيق هذا الهدف، مهما كلفه ذلك من ثمن، وسلك كل مسلك يؤدي إلى تلك الغاية.. بغير تردد..

وبدأ يسدد ضربات قاتلة لا تعرف شفقة أو رحمة.. فشدد الوطأة على منطقة القنال. فكانت المجازر متتابعة في التل الكبير والإسماعيلية.

عمل كهذا يستلزم حتماً من حكومة مصرية، مهما بلغت الحضيض في الانهيار أن ترسل بمزيد من قواتها لحفظ الأمن بقدر المستطاع..

عندئذ يخف الضغط على العاصمة من حراسها.. وتصبح عارية خالية. حتى إذا قامت مظاهرة.. أو حركة.. وقد بات ذلك وشيك الوقوع بين لحظة وأخرى- اضطرب حبل الأمن.. واختل التوازن في الجبهة الداخلية.. فتعم الفوضى أرجاء البلاد، وفي هذه الأثناء.. تبرز عوامل الحقد وينزل الذهب الرنان إلى جيوب الخنافس والسلاطين، وتعجز قوات الأمن- بعد اختصارها- عن صد غوائل الفوضى وهجمات المأجورين على تعكير الصفو وتكدير السلام.

وهنا تخرج الحية الرقطاء من جحرها، وتتذرع بهذا التخلخل.. لتبرير احتلال البلاد، بحجة رعاية مصالحها، وصيانة ممتلكاتها، وأرواح رعاياها، وحماية الأقليات بها، مع تشويش الخواطر ضد مصر، والإساءة إلى سمعتها في المجال الدولي، وإظهارها بمظهر العجز عن حفظ النظام؛ بعد أن أفلت منها الزمام.

بلوكات النظام

أخذت ستائر الظلام، بعد غروب يوم ٢٥ يناير تنسدل رويدا رويدا، على مجازر القنال. فقد بلغ موكب الشهداء في خلال الأربعين يوما الماضية أربعمائة أو يزيدون عشرة، حصدت أرواحهم مناجل المستعمر.

وكان الليل أخفى للويل، البرد قارس، والعواصف هوجاء، واختفى الوجوم في ثنايا الظلام الحالك، وأوى كل مواطن إلى فراشه، وفى صدره مرجل يغلي. ونار تشتعل، والتصدع يومئذ، أبرز ظاهرة مميزة لحالة الدوائر العليمة، الحكومة، القصر، لندن، فايد.. حتى في أفراد الأسرة الواحدة، وفي الأحزاب السياسية.

وهذه الأحزاب بالذات، لم تكن تملك غير الانتحاب على الشهداء، وكل حزب يسابق الأحزاب الأخرى، في كسب شرف انتماء أي شهيد إلى حظيرته، ولم يكلف أحد من الزعماء نفسه عناء الذهاب إلى أسر الشهداء، ومواساة أهليهم، ومد يد العون إلى المحتاجين منهم بعد أن بذلوا دماءهم الزكية في سبيل كل من بات حيا يرزق.. ومنهم الزعماء.

حقا كان التصدع أبرز ظاهرة أعقبت هذه المآسي الأليمة، وكانت ليلة ليلاء.

ولم تكد الساعة تدق السادسة من صباح يوم ٢٦ يناير حتى بدأ ناقوس الخطر يجلجل ويدق، منذراً بشر مستطير، فقد تجمهر زهاء ثلثمائة جندي من بلوكات النظام في ثكناتهم بالعباسية، وحملوا أسلحتهم وانطلقت حناجرهم في آن واحد بهتاف واحد "أين السلاح نريد أن نذهب إلى القنال"، وسرت الحماسة في أوصال الجنود والضباط على السواء، وسرعان ما وجدوا على رأسهم الضابط عبد الهادي نجم الدين

فارتجت الجدران ارتجاجاً، وإذا بالسيل الجارف يدفعه إلى الزحف مع الزاحفين إلى..!

خط السير

خرج جنود بلوكات النظام من الثكنات، ضباطهم في المقدمة غير اتفاق جنائي أو عدواني، وإنما هي حوادث الأمس الدابر، شحنت نفوسهم شحناً قوياً، فلم يجدوا عن طريقهم منصرفاً. وبلغوا الأزهر ولم ير المواطنون بدأ من الانضمام إليهم، وعلت الهتافات ضد الملك والحكومة والإنجليز.

ودلفت هذه الجحافل بما عبأت من طلبة الأزهر نحو ميدان العتبة الخضراء ومنها إلى ميدان الإسماعيلية في طريقها إلى جامعة القاهرة، ملأت رحابها في الساعة التاسعة، وتبودلت الخطب تقدح بالشرر، وماجت بها الشوارع في زحفها إلى ميدان عابدين.

ذلك الميدان هو الذي حشد فيه عرابي جيش مصر وشعب مصر، وإذا (بتوفيق) وأعوانه من قناصل الدول يحنون الهامات سنة ١٨٨١م إجلالاً وإكباراً، ويخفضون الجناح رضوخاً لمطالب مصر شعباً وجيشاً.

وكانت تكون وقفة ما أروعها سنة ١٩٥٢ في نفس الميدان لو كان لمصر يومئذ زعيم، ولكن الزعامة كانت قد أفلست، ولم يعد لها رصيد

شعبي يسندها أو غطاء فكري يدعمها، ومن أجل هذا خلا ميدان عابدين من زعيم بعد سبعين سنة من وقفة أحمد عرابي في طليعة الثوار.

وامتدت أطراف المظاهرة، واتسعت ميمنتها وميسرتها، واستطالت مقدمتها ومؤخرتها، وما يزال القلب منها- على الرغم من هذا الحجم المتضاعف- ينبض قوياً ويخفق طويلاً، فلما غادرت هذه المظاهرة- مزجرة مدمدمة- ميدان عابدين انضم إليها رجال مخفر عابدين، وكادت الشوارع والميادين تنفجر بكثافة الخلائق حتى استقرت في دار رياسة مجلس الوزراء عند منتصف النهار، وعلا الهتاف وخرج وزير بخطب فأخرست لسانه زمجرة الأسود الغاضبة المهتاجة، وجيء له بمكبر الصوت ليتكلم فتركوه يعوي، وإذا زمجرت الأسود فليسكت ما دونها، وعاد إلى مكتبه يبلغ ريقه ويجفف عرقه؛ ومضت المظاهرة في زحفها إلى ميدان الأوبرا، فاختلط الحابل بالنابل، ومن ثمت انقلبت إلى شيء آخر لم يكن في الحسبان.

دقت الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، فاشتعل أول فتيل في حريق القاهرة وسرت النيران واتصلت الحرائق ولم يخمد أوراها إلا في الحادية عشرة ليلاً بعد أن دمرت ميادين وشوارع ومحلات وملاهي ومقاهي ومتاجر وحانات بلغت السبعمائة أو تزيد، واحترق زهاء ثلاثين شخصاً ما بين مواطن وأجنبي وأصيب بحروق أكثر من سبعمائة، نقلت عربات الإسعاف منهم النزر اليسير، أما الكثرة الغالبة فقد تكفلت بمداواة حروقها وتضميد جروحها خشية الوقوع في حيص بيص.

اللاعبون بالنار

القاهرة تموج بالمظاهرات من النوع الثقيل منذ السادسة صباحاً، وتأخذ في الضخامة والجسامة شارعاً بعد شارع وساعة بعد ساعة، والملك في قصره من فوق العرش، وكبار الضباط والحاشية حافون من حوله على المائدة الملكية دعاهم إليها في ذلك اليوم احتفالاً بأفراح لا مقطوعة ولا ممنوعة، فقد بقى له من عقبه ولي عهد، فلابد من اعتقال ٢٥٠ من الفدائيين بهذه المناسبة..

أقيمت المأدبة وانفضت في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، در فيها على المدعوين ما لذ وطاب، من مأكول شهي، ومشروب روى، ومسموع شجى، والشعب لم يكد ينفض يديه من تراب شهدائه، تراب ينبعث منه ريح الجنة وما أزكاه!

كبار المدعوين إلى المأدبة، لا يعلمون الفرق في اللغة العربية بين الوليمة والوضيحة، أيهما للفرح وأيهما للترح، وما يقوله وفد التهنئة، وما يقوله وفد المرزئة، على كل حال، لا يعلم غير الله، ما وراء الغيب، وعند صفو الليالي يحصل الكدر..

كبار المدعوين إلى المأدبة، بعلمون شيئاً واحداً، هو أنهم أصدروا تعليماتهم إلى الضباط عند إنفضاض الموائد الملكية بتحاشي الأماكن الغاصة بالجماهير، في العودة إلى بيوتهم، خوفاً مما لا تحمد عقباه،

وخوفاً من الاحتكاك بالمتظاهرين، سواء كانوا من المدنيين أو رجال الأمن، ومنعاً من حدوث مضاعفات..

كبار المدعوين إلى المأدبة، يهلمون أن موعد المأدبة الملكية هو الساعة الواحدة والنصف، أي بعد اشتعال الحرائق المدبرة بساعة إلا ربع، ومع ذلك حضروا إلى القصر من الساعة الحادية عشرة.. لماذا؟.

وبلغ عدد الحرائق ٢١٧، بدأت بكازينو (أوبرا) وانتهت بسينما (هونولولو) بحدائق القبة، استعمل في إضرامها البترول والبنزين والكحول والفسفور ومواد أخرى سريعة الالتهاب، مواد دخيلة لم تعرف من قبل، وقدرت الخسائر المادية بحوالى عشرين مليوناً من الجنيهات، ووافق البرلمان على تعويض المنكوبين وأصحاب الحرائق في جلسة مستعجلة، تقررت فيها السلفة التي طلبها علي ماهر من الاحتياطي وهم الغائمون.. ونحن الغارمون.

وكان المتظاهرون خليطاً من الطلبة والعمال وجنود البلوكات، إندس في صفوفهم عناصر من نسل (خنفس) الخائن، وحاول البوليس تفريق جموعهم بالغازات المسيلة للدموع بلا جدوى، وامتدت خراطيم المطافيء فمزقها اللاعبون بالنار، وحاولوا بين الماء والنار.

غاب عن المسئولين أن الأنفاس الحارة المنبعثة من مراجل الصدور، كانت وحدها كفيلة بإشعال جهنم الحمراء، التي وقودها الناس

والحجارة، وكأني بالشعب يردد قول شاعر الوعيد.. والحكومة لا تسمع قوله:

أي خلـــل الرمـــاد ومـــيض نـــار ويوشـــك أن يكـــون لـــه ضـــرام

لـــئن لـــم يطفهـــا عقـــلاء قـــوم يكـــون وقودهـــا جثـــث وهـــام

يا نار. كوني بردا وسلاما

كان لكل مسئول في مصر، يوم ٢٦ يناير أذنان، إحداهما من طين والأخرى من عجين، وكان لكل مسئول طبعاً يومذاك عينان.. ولكنهما مغمضتان، لا من الخجل والحياء، ولكن من الذلة والصغار. والعياذ بالله، وضرب الله على أسماعهم وأبصارهم، فلم تصل إليهم أدنى إشارة حسية من هتافات أو مظاهرات، وبات كل شيء "على ما يرام" نعم، على ما يرام، ولنبدأ من حيث اشتعل الفتيل الأول..

رأى المتظاهرون عند وصولهم إلى ميدان الأوبرا. أفراد جماعة الكازينو وهم يتدربون على أدوارهم التمثيلية، فأمعن المتظاهرون فيهم ضرباً ولطماً وشتماً. ووكزاً ولكزا، فلاذوا بالفرار حفاة عراة.. رجالاً ونساء، وحطموا الصالة وأشعلوا فيها النار، وألقوا بالأثاث والأدوات في أكوام كدسوها في الشوارع، ثم تركوها طعمة للنيران. بينما سيارات النقل ننقل اللاعبين بالنار من أقصى المدينة إلى أقصاها.

وكانت الإشارة تعطى هنا وهناك، أو علامة بالطباشير توضع على أي مكان، فسرعان ما يقتحمه اللاعبون بالنار، وعجلان ما ينهبون منه ما خف حمله.. وإلا فالنار أولى به، وهكذا، ما مروا بمكان إلا تركوه حطاما.. من سينما (ريفولى) إلى النادي الإنجليزي (الترف جلوب) إلى فندق شبرد، ذلك الفندق التاريخي، احترق من به النزلاء والنزيلات.. وممن كتب الله له النجاة منهم وزير العدل الوفدى محمد محمد الوكيل وشوهد قابعا في سيارة واقفه في ميدان قنطرة الدكة.. وقد التهمت النار أمتعته وملابسه، وامتدت ألسنتها إلى محلات عمارة (إيموبيليا).. إلى بنزايون، إلى بنك باركلين، ومنه انطلقت رصاصة طائشة، أصابت عاملاً في المتظاهرين فخر إلى الأرض مضرجا بدمائه، وحملوه على الأكتاف.. إلى ميدان عابدين، والهتاف يشق الحناجر، ضد الحكومة والقصر، ولم تترك الجماهير هذا البنك فأسلمته للنيران، وازدردت كل ما به ومات فيه غشرة محترقين، منهم المصري والانجليزي، ومنهم زوج بنت مدير البنك، مات ومفاتيح الخزائن في يده..

وتوزع اللاعبقت بالنار فيما بينهم أحياء أخرى لتدميرها وسلبها ثم إحراقها في العباسية، وحدائق القبة، وباب اللوق، ومضى كل خسيس بعمل كل ما سولت له نفسه. لا رادع من ضمير ولا وازع من وطنية، ولا اكتراث بالعواقب.

وما وافت الساعة الخامسة حتى نزل بحديقة الأزبكية مائة وخمسون جنديا من جنود الجيش، وفي الساعة السابعة بلغوا خمسمائة

استطاعت بفضل معونتهم- قوات الأمن والمطافيء أن تضع للنار حداً في أقرب فرصة مستطاعة، حتى حوصرت، ولم تزحف ونجت المساكن، وانقطع الصراخ والعويل، وانتهى الذعر والهلع، وكأن الله قد تجلى من عليائه، وقال:

"يا نار كوني برداً وسلاماً".. على القاهرة

شوارع.. وميادين

من الذكريات، ما يؤلم إذا استعيد إلى الأذهان، ومع هذا فإن "الفكرة التي تنشر لنا ثنايا التاريخ تدعونا إلى ذكر أسماء الشوارع والميادين التي عبثت بها الحرائق، ولحقت بها الخسائر، وهي:

شارع الأهرام ميدان الإسماعيلية شارع سليمان باشا شارع عدلى باشا شارع الفلكي شارع فؤاد الأول شارع شريف باشا شارع نجيب الريحاني شارع رشدي باشا شارع شق الثعبان، شارع كامل صدقي باشا شارع كلوت بك، شارع المهراني، ميدان باب الحديد شارع الملكة، شارع بستان الدكة، ميدان قنطرة الدكة، ميدان الخازندار، شارع صبري أبو علم، شارع ألفي بك، ميدان عابدين، ميدان مصطفي كامل، شارع الظاهر، ميدان إبراهيم باشا، ميدان باب اللوق، شارع فاروق، شارع خليج الحور، شارع عبد الخالق ثروت. شارع الشواربي، شارع قصر النيل، شارع محمد باشا صدقي، شارع البستان، سكة المغربي، شارع محمد بك فريد، شارع الأنتيكخانة، شارع حليم باشا، ميدان حليم باشا،

شارع عماد الدين، شارع جلال، شارع رشدي باشا، شارع الخديوي إسماعيل، شارع قنطرة الدكة، شارع دوبريه، شارع توفيق، شارع محمود فهمي المعماري..

ودمرت الحرائق ٢٤ داراً للسينما، و٨ كازينوهات، و٨ فنادق، و١٥ نادياً ومكتباً، و١٣٠ محلاً تجارياً، و٥٠ خانة ومقهى وملهى هذا إلى جانب المطابع والمصانع ومحال بيع السجاير والساعات.

وفشلت كل المحاولات لإطفاء الحرائق أو وقف اندلاع ألسنتها، وذهبت كلها أدراج الرياح، وقد صرح الاخصائيون في إطفاء الحرائق بأن المواد السريعة الالتهاب التي استعملت في هذه الكارثة غير معروفة لديهم، ولم يتبينوا تراكيبها الكيماوية فحارت منهم الألباب، ووضعوا أصابعهم في الشقوق..

ولم تكد النيران تلفظ آخر أنفاسها حتى انتقل جو القاهرة إلى خط الأستواء، وانقلب زمهرير الشتاء إلى قيظ صيف محرق. وانتشر الباحثون عن الأمن في كل مكان ينصتون ويتسمعون، ورجعوا بصيد ثمين فقد ألقوا القبض على أكثر من خمسمائة شخص اشتبهوا في أمرهم وتحفظوا عليهم في مخافر البوليس. للتحقيق معهم أمام النيابة ومحاكمتهم.

ومما لفت الأنظار أثناء تحقيق شركة (سييكو) تبليغ موظفي الشركة عنها، وبالمعاينة تبين أن موظفي الشركة أنفسهم هم الذين سرقوها، وتلك إحدى الحالات التي دلت على أن سيف الاتهام قد كان مصلتا على

رقاب المواطنين الأبرياء، بينما اللاعبون بالنار، والصائدون في الماء العكر، قد سرقوا ما سرقوا، ثم شقوا أصحاب البيوت بالحجارة.

وهكذا تجمعت خيوط المؤامرة في أيدي رجال النيابة..

ويكفى هنا أن نشير إلى التقرير الرسمي للنائب العام الذي نوه بوجود عصيان خطير من عمال المطار وجنوده وموظفيه المدنيين حول أربع طائرات بريطانية، ومنعوا نزول الركاب منها وأبوا أن يمونوا هذه الطائرات بالوقود "ثم تمرد جنود بلوكات النظام في الأقاليم وأبوا أن يقوموا بما كلفوا به من الذهاب إلى الجهات المخصصة لهم لحفظ الأمن بالعاصمة وخرجوا يحملون أسلحتهم في مظاهرة ساخطين على ما أصاب زملاءهم بالإسماعيلية، وأخذوا طريقهم وهم يتنادون ويتصايحون بطلب السلاح، وساروا مخترقين العباسية فالأزهر فميدان الإسماعيلية (ميدان التحرير) فالجيزة حيث لم يجدوا زملاء لهم كانوا يتوقعون وفودهم فاتجهوا إلى جامعة فؤاد الأول (القاهرة) في التاسعة والنصف واختلطوا بالطلبة وسار الجميع في مظاهرة صاخبة إلى رياسة مجلس الوزراء حوالي الساعة الحادية عشر والنصف تقريباً، ثم قامت في الحادية عشر والنصف مظاهرات عدة، مظاهرات عمال العنابر والسكك الحديدية، مظاهرة من الأزهر وأخرى من كليات جامعة إبراهيم (عين شمس) وقد تجمعت هذه المظاهرات بدار رياسة مجلس الوزراء حيث اختلطت بالمتظاهرين من جامعة فؤاد الأول وبلوكات النظام.

ومما نشرته جريدة أخبار اليوم في ٢٦ يناير أن من بين المقترحات المعروضة للبحث رداً على الاعتداء البريطاني في الإسماعيلية تسلم السفير البريطاني جواز سفره وإغلاق القنصليات البريطانية في البلاد، وقطع العلاقات السياسية والاقتصادية مع انجلترا..

قبل الحريق.. وبعده

في المطار

قبل أن ينزغ فجر يوم ٢٦ يناير، يوم حريق القاهرة، يوم البركان الذي رمى بكل ما في جوفه من حم تلتهب وصواعق تكتسح، وقذائف تلتهم.. في وجوه اللاعبين بالنار.. وحدهم..

قبل أن ينزغ فجر ذلك اليوم.. هبطت فوق مطار القاهرة الدولى أربع طائرات بريطانية.. وغادرها ركابها الذين كانوا من مختلف الجنسيات.. ومتباين الملل والنحل.. وأوشك عمال المطار وجنوده وموظفوه أن يتخلوا عما في أدمغتهم من عقول، وائتمروا فيما بينهم على القيام بعمل تخريبي بشفى غليلهم، ويبرد نار صدورهم المتأججة، جزاء وفاقاً لما أصاب المواطنين في القنال في الليلة الماضية، وكاد الزمام يفلت فعلاً. لولا أنهم ثابوا إلى رشدهم واحتكموا إلى موازين العقل، وقدروا وخيم العواقب، فآثروا التريث، ومرت العاصفة بسلام.

ولا يخفي أن صدور الجماهير، لم تعد تحتمل تلك الضغوط المتزايدة وإلا تمزقت الأضالع، لابد إذن من مصارف لتفريغ شحنات السخط، بعد تعبئة النفوس به ضد الملك، والحكومة، والإنجليز. وأين

للشعب هاتيك الأعناق الغلاظ، ليقبض عليها بكل ماواتته قوته فلا يدعها حتى يلويها ثم يمزقها إربا إربا، وأين للشعب سلاح، أو طريق يوصله إلى القنال لينتقم لمواطنيه الخمسة والستين أو الثمانية والستين من جنود بلوكات النظام الذين استشهدوا في الليلة الماضية تحت وابل لا ينقطع من قنابل الأوغاد الإنجليز؟ وأين لنيران الحقد، أعز من المتمكن في الصدور، أين لها من حطب تلتهمه، فيزداد لهيبها اشتعالاً، ولا يخمد لها أوار؟ لابد إذن من أحد أمرين: فأما وقود للنار المضطرمة، وإما انفجار مدمر يهد الأضالع، ويدمر الصدور.

والنـــــار تأكـــــل بعضـــــها إن لـــم تجـــد مـــا تأكلـــه

زمالة الدم

وكان جنود بلوكات نظام الأقاليم– وهم قوات الطواريء المحلية– يشعرون في أعماق نفوسهم أن سراج الوفد الوهاج قد جعلهم حطبا لنيران معركة القنال، وأدركوا أنهم سيلحقون بزملائهم ضحايا متخاذلة متهالكة ولم يعد يخفي على كل ذي بصيرة ما جرته السياسة الخرقاء على البلاد، وما أصابها من ويلات، بينما الوزراء والملك وأعوانه، والأعيان، ومحترفو السياسة، ومصاصوا الدماء، قابعون في عقر دارهم حول المدفأة، يتخذون من الأنباء المذاعة عن هذا الصراع الدامي، مسلاة يملأون بها فراغهم المترف، ويصلي جنود البلوكات وحدهم، نارا ذات لهب "كأنها جمالة صفر، والشهداء الأبرار يفجع بفهم الأهل

والولد ولا مواساة في محنة، ولا عزاء في مصيبة، فالملك أشبه ما يكون بالخنزير البريء– وهكذا رسموه في المجلات والصحف الأوروبية– أدار للشعب ظهره، وليس من اللياقة في شيء، أن تجرح أنباء المعركة مسامعه السامية".

خطـرات النسـيم تجـرح خديـه ومـس الحريـر يـدمي بنانـه

هذا، والأعياد الملكية ما تزال سرادقاتها منصوبة، وموائدها ممدودة والشعب ما باله لا يقهقه، ويطرح الهموم والأشجان جانباً، ليشارك القصر قصر ولى النعم؛ في أفراحه وأعياده؟! أليس الناس على دين ملوكهم؟!.

هذا ما كان يريد الملك الفرحان من الشعب.. الشعب الذي تتطاير الدماء وتتناثر الأشلاء في خياله الحاد المرهف، في ليله الساهر الموصول بنهاره الكادح، وما تزال آفاق السموات معبأة بالغيوم، ملبدة بالدخان مجللة بالسواد، لا تتزحزح ولا تبرح، تطالب بالثأر للضحايا والخسائر والخرائب، تطالبه وحده، فهو الذى يبقى وغيره إلى زوال، وسبحان من له الدوام بعد فناء خلقه.

لم يكن عجبا إذن أن يبادر جنود البلوكات بالثورة العارمة، فقد أصبحت ثكنانهم حظائر لتربية الضحايا، التي تعهد سراج الوفد بتوريدها تباعا لسلخانات أكسهام وأرسكين في القنال غير عابيء بشئونهم ولا بمطالبهم، بل يأمر بالتليفون، فيكون الرد خالصاً، ويفاتلون حسب

الأوامر بلا سلاح.. "فقد أعددنا لكل شيء عدته" من خيرازانات وبنادق خفراء العزب والقرى.

رأى هؤلاء الجنود أن زملاءهم يذهبون ولا يرجعون، وفطنوا إلى أن الحكومة تبيت أمراً يتنافى مع نشاط الفدائيين، ذلك النشاط الذي تصدع من هو له كل شيء، وكادت تميل من زئيره أبراج لندن.

وعمدت الحكومة إلى المغالطة واللف والدوران، فوصفت انطلاق الأسود بعد تهيجها بالتمرد والعصيان، والخروج على النظام فهي حركة وليس وراءها بركة، لأنها كما يقول سراج الوفد في بيانه الذي نشرته (المصري) في ١٠ فبراير سنة ١٩٥١.. "فتنة داخلية وحركة مدبرة لحق العاصمة وإشاعة الفوضى في أنحاء البلاد".

وإذا كانت "مدبرة" فأين عين البوليس السياسي وأين سائر أجهزة وزارة الداخلية!. أليس ذلك واجبها الأساسي يا سراج الوفد؟ ألم يكن في استطاعتك أن تقنع مولاك– وأنت طبعاً وزير مسئول عن أمن البلاد– أو على الأقل أن تقنع وزير الحربية، أو القائد العام للمبادرة باتخاذ التدابير الفعالة والكفيلة بوقف هذا التمرد قبل أن تطل "الفتنة الداخلية" بقرنيها؟!

ولماذا لم تبذل المساعي الجدية– لا بالتليفون والأخذ والرد– حتى ينزل الجيش ببعض وحداته إلى الشوارع والميادين– كما فعل النقراشي سنة ١٩٤٧ بالاسكندرية أم أنك أمسكت التليفون واتصلت بالسراي وطلبت الجيش، ثم قلت لا حاجة بنا إليه الآن، ثم طلبته

وألححت في طلبه، فتلقيت وعدا، فاستنجزت هذا الوعد، ثم ماذا، ألم يكن في نفسك ساعتئذ يا سراج الوفد، شيء من حب الانتقام من السراي، والجيش مدفوعاً بعوامل "التحزب" الذي أعماك عن سواء الصراط، ولم ترع مصلحة البلاد العليا.؟ وهذا بيانك شاهد عليك.

ولكن ما الحيلة؟، وقد اتسع الخرق على الحكومة وانحلت عزائمها وانفرط عقدها، وصار من المتعذر عليها أن تسيطر على أعصابها المنحلة وضاعت هيبتها، وضرب المرءوسون بأوامر الرؤساء عرض الحائط. وتخاذلت حكومة الوفد أمام نفسها وأمام الشعب وأمام القصر والجيش والبوليس والإنجليز والأجانب والتاريخ.

حاولت الحكومة الوفدية كثيراً أن تستر مخازيها، فلم تجد من تعليل تصف به ثورة جنود البلوكات إلا بأن لهم مطالب رفضتها الحكومة، وهي تتعلق ببذل الطوارىء الذي توقفت الحكومة عن صرفه لهم، وهي تهمة باطلة. لا تستند إلى حقيقة الشعور المتأجج في صدورهم.. المتمكن من دمائهم. المتغلغل في أصلابهم وأصلاب السلف والخلف.. ذلك الشعور المضطرم في صدر كل شريك لهم في هذا البلد.. وتكاد لفحات لهيبه تحرق كل شيء تمر عليه طولاً وعرضاً..

شعور شامل.. يطوي بأنسامه الحرى.. جميع البلاد والعباد.. فهل عن هذا شعور طبقات أخرى في الشعب كالعمال.. والموظفين. والطلاب.. أو غيرهم.. كلا.. إذن إنه لطعن في كرامة هؤلاء الجنود..

كرامتهم الإنسانية.. والوطنية أن يقال إنهم تمردوا على النظام لسبب تافه كالذي قاموا من أجله.. وهو المطالبة بصرف بدل الطوارىء المتأخر؟ ألم يكن المجال واسعاً من قبل.. والفرصة سانحة؟. ولكن أبى وزير الداخلية، الجنرال سراج الدين إلا أن يطعن في جنوده الأوفياء، ومثل هذا التصدع في هذه الجبهة بالذات، أقل ما يوصف به أنه وحده كارثة..

والحقيقة التي تؤكدها مجريات الحوادث، أن هؤلاء الجنود كانوا أسرع من غيرهم وأصدق في التعبير عن الكبت الذى كاد يمزق الضلوع. فانهتك الحجاب الحاجظ بينهم وبين ما يسمى بالنظام والطاعة.. وقد أتخذ الوزير من هذا النظام وهذه الطاعة ستاراً كثيفاً يخفي وراءه ما منيت به سياسته من فشل ذريع.. أودى بالقاهرة إلى الهاوية.. وكان هؤلاء الجنود– وهم مواطنون.. من صميم هذا الشعب الدافق الواعي– أول لسان يندلع بالثورة.. على حماة الاستعمار.. وسدنة الإقطاع.. الذين باعوا مصر للعدوان بثمن بخس.. وقد انتفخت كروشهم والشعب جائع.. وتورمت أوداجهم والشعب في هزال.. وأضناهم الترف والسرف.. والشعب يشقى بالحرمان.. وبح صوتهم بالهتاف "أين السلاح.. نريد أن نذهب إلى القنال".. دعتهم زمالة الدم.. فخرجوا يلبون الدعاء..

إن الواحد منهم– بشهادة الفقر الرسمية– لا يملك في طول البلاد وعرضها شبرا واحداً.. ولا يستغل عقاراً أو رأسمال.. ومع ذلك لم يهن هذا الوطن عليه في الذود عنه.. لأنه يذود عن شرفه حين يذهب إلى

القنال.. فإن رزقه ربه الشهادة هناك فذاك خير له ألف مرة من أن يعود إلى حظيرة سراج الوفد..

بركان.. لا عصيان

إذن.. لم يكن خروج جنود بلوكات النظام من ثكناتهم غداة مجازر القنال– بعد الفتك بخمسة وستين أو أكثر من زملائهم. حركة تمرد وعصيان كما يدعي قصار النظر.. ولا حركة انتهازية لمطالب تافهة.. وإنما هو "بركان" يفور ويمور.. و"ثورة" لها جذورها العميقة السارية في النفوس.. الضاربة في الماضى.. آن الآوان لأن تنشق عنها التربة التى حضنتها كالجنين في بطن أمه.. فلما اكتمل نضجه واستوى خلقه.. جاءها المخاض على إثر ضربات تتلوها ضربات.. فوضعت كل ذات حمل حملها.. ولكل شيء أوان..

لو كانت حركة تمرد.. بسبب الحرمان من حقوق أو مرتبات أو مكافآت أو علاوات أو متأخرات، لاتجهت الحركة إلى دار الحكومة، أو على الأقل إلى وزارة الداخلية. فأتلفتها أو أحرقتها، وتركت أنقاضها أطلالاً وخرائب. تنعي من بناها.

لو كانت حركة تمرد.. بسبب وقف صرف بدل الطواريء.. ما وجد رجال الأمن أنفسهم مدفوعين إلى الاندماج في حملة السخط "وثورة الغضب.. للعمل المشترك بغية الوصول إلى فجر جديد. يبزغ من

حواشى هذه الليالي الحالكة السواد.. التى أطبقت طولاً وعرض على صدر الوطن فكادت تزهق أنفاسه..".

لو كانت حركة تمرد.. من ثلثمائة جندي يطالبون– في هذه الظروف الطاحنة– الخزينة بقروش تافهة لقد بلوا من الشعب. في طبقاته مجتمعه– بالاستنكار.. بل بالضرب والرجم.. ولكن رجال البوليس في دار مجلس الوزراء.. وفي الشوارع والميادين.. على مرأى ومسمع من الوزراء.. اشتركوا في الهتاف المدوى "أين السلاح.. نريد أن نذهب إلى القنال، .. وكانت أسلحتهم في أيديهم. فلم يضربوا في (المليان).. لوم يصوبوا فوهات بنادقهم نحو صدور المطلين عليهم من شرفات الوزارة.. وإنما صوبها إلى الفضاء.. مشهدين الله والتاريخ أنهم متضامنون مع مواطنيهم جنود البلوكات.. الذين سبقوهم بشرف الفداء إلى القتال في القنال.. تضامنا كاملاً في مشاعرهم الفياضة.. الجياشة. وهي مشاعر الجميع بلا استثناء..".

كان في الإمكان.. يومئذ– لو أن هؤلاء الجنود متمردون من أجل دراهم معدودات.. أن يضرموا النار في دار الوزارة.. إن لم يكن في سائر دورها– أو في الداخلية وحدها– أو اغتيال أكبر رأس فيها. كان في الإمكان أن ينتهى هذا كله في لمح البصر.. وسرا لا علانية.. إشباعاً لنزوة الانتقام من غاصب حقوقهم.. ولكن شيئاً من هذا كله لم يحدث.. ولم يكن ليحدث ولكن الذي حدث هو أنهم أطبقوا بأيديهم الخشنة

على عنق الحكومة، وضغطوا عليه ثم تركوها رفقاً ورحمة بمصالح البلد العليا، وإنذاراً لكل غافل. وإعذاراً إلى الله.. ولقد أعذر من أنذر..

هكذا مثل الجنود بطولة (العفو عند المقدرة).. فقد هزوا الحكومة الواهية هزا عنيفاً، ولم يكن ثمت ما يحول بينهم وبين الضغط على الرقاب حتى تخرج معها شهادة وفاتها، ولكن الجنود قدروا وعفوا.. والحكومة من الهول في ذهول..

المهم: أين وزير الداخلية؟. إنه لم يغادر بيته إلى مكتبه بالوزارة إلا قبيل الظهر.. لا لمباشرة مهام منصبه.. وإجراء اللازم.. نحو سلامة الأهلين وحماية الممتلكات من العابثين بالنظام، والضرب على أيديهم.. ولكن للتوقيع على عقد شراء عمارة جورج عريضة رقم ٢٣ شارع عبد الخالق ثروت.. وثمنها ثمانون ألفاً من الجنيهات.. يا لسخرية الأقدار..!

كيف إذن يخفي سراج الوفد معالم الجريمة؟..

وأبدى البوليس السياسي نشاطاً ملحوظاً في القبض على كل مشبوه.. وسنحت الفرصة للانتقام والأخذ بالثأر من المغضوب عليهم.. والزج بهم في أعماق السجون.. وقد اكتظت بهم ريثما يتم إعداد شهود الإثبات إعداداً مسرحياً.. يدعو إلى الرثاء..

النحاس يتكلم

وفي مساء يوم الحريق.. انعقد مجلس الوزراء.. لدراسة الحالة التي أصبحت بالغة الخطورة... وبكل سرعة تم إعلان الأحكام العرفية.. وحظر التجول.. وأذيع بيان النحاس الذي برر فيه اتخاذ هذه الإجراءات الاستثنائية.. وطالعتنا الصحف الصباحية يوم ٢٧ يناير بهذا البيان الذي نقتطف منه:

".. فقد انتهزت عناصر الخونة المارقين، ودعاة الفتنة الهدامين، الذين ينتهزون الفرص لمحاولة بث الذعر والاضطراب وإشاعة الفوضى في ربوع البلاد، انتهز هؤلاء الخونة فرصة إعلان عضبكم واستناركم لعدوان الإنجليز الوحشي الغاشم في القنال، وأخذوا يندسون في صفوفكم، ويرتكبون جرائم منكرة مدبرة على المتاجر والمنسآت والمنازل، وإشعال النيران والتخريب والتدمير والسلب والنهب فأثاروا موجة من الفتن والاضطراب ينزل بقضية البلاد أفدح الأضرار وتهييء لأعداء البلاد فرصة الإيغال في الغي، والإعان في العدوان".

ولكن الله عجل بإعفاء النحاس من الحكم قبل أن يجف عرقه.. الذي كتب به هذا البيان..

وغنى عن كل بيان.. أن النحاس قد اعترف بهذا أن الحكومة قد سمحت للشعب بإعلان غضبه.. وغاب عن تدبيره عواقب هذا

الإعلان.. وذلك السماح.. مما أدى إلى المصائب والخسائر التي أودت بالقاهرة إلى الدمار.

ولاذت صحف لندن بالصمت العميق.. إزاء هذه الحوادث وتلك الكوارث.. لأنها شئون داخلية لا دخل لبريطانيا فيها.. أما الجنرال أرسكين فأغلب الظن أنه قد أعد الحصار الأبيض.. الذي سيمتطى صهوته في زحفه على القاهرة.. ودخوله من (باب النصر).. إحياء لذكرى سلفه الصالح الجنرال (ولزلي) يظل احتلال سنة ١٨٨٢.

وانتهز الملك فرصة إعلان الأحكام العرفية، وكأنه كان معها على ميعاد.. فلم تكد شمس يوم ٢٧ يناير تغرب حتى انتهت آخر صفحة من كتاب "الطرق السلمية المشروعة، وقام علي ماهر بتأليف وزارته.. وبها تكون أربع وزارات قد تولت حكم البلاد في مدى ستة أشهر".

وهنا فقط أطلت الحية الرقط، بقرنيها.. فقد عبرت صحف لندن ودوائرها العليمة بالحال.. عن أصدق مشاعرها.. وأسمى أمانيها في الترحيب بوزارة علي ماهر..

وانطوت سنتان كاملتان.. تولى فيها الوفد حكم مصر.. استهلكت كل دقيقة فيها أعصاب الشعب المغلوب على أمره.. الشعب المجنى عليه.. المتآمر على حياته حكامه.. وكأنى بالنحاس يتسلم خطاب الإقالة.. أقصد الإعفاء.. وهو يقول "نحن مبسوطون"... ولكن: على نفسها جنت يراقشي

هذا بينما لإبوار مراسل أخبار اليوم في لندن يقول "إن هناك مجالاً أوسع للتفاؤل من أي وقت مضى، وتغيير الحكومة المصرية هو الذى يتيح هذه الفرصة، وأهم شئ هو ما قاله علي ماهر: أن يمهد لأحسن جو يصلح المفاوضات ولكي يمهد لهذا الجو يجب قبل كل شيء، إعادة الهدوء والنظام ووقف العدوان".

ويسرع عبد الفتاح عمرو سفيرنا في لندن فيبلغ أيدن "أن مصر تريد أن تحل المسألة المصرية على أساس جديد وأن حكومة مصر ليس لديها الوقت الطويل، إنها تريد أن تسير المباحثات بأسرع ما يمكن، وذلك حتى تتفرغ مصر لبحث مسائلها الداخلية الخطيرة لأن الإطالة في هذه المسألة الآن يحدث أسوأ العواقب".

البحث عن الفاعل

السلف الصالح

أباح الشعب لنفسه أن يختلس سنة من النوم.. بعد سهاد طويل.. احترقت فيه الأعصاب.. ثم بدأ يستجم لمواصلة الكفاح.. واستئناف ما انقطع من رباط.. وقد كان يتحرق شوقاً إلى استطلاع اتجاه الحكومة الماهرية.. ليطمئن على صلابة الأرض التى يقف عليها.. ولكن خيبة الأمل.. قد صابت المصريين عن بكرة أبيهم.. عندما صرح علي ماهر بانتهاجه سياسة "سلفه العظيم" على حد تعبيره..

ولو فرضنا جدلاً أن علي ماهر كان يبغي من وراء مسح الجوخ أن يظفر بتأييد برلمان الوفد لسياسته الجديدة.. إلا أنه قد طعن الشعب في تضحياته الغالية.. طعنه قاتلة.. فقد شهد للنحاس بالعظمة.. ورد إليه اعتباره.. الذي سلبه منه الشعب العملاق.. ومن هنا بدأت سياسة الوفديين– وهم خارج الحكم– تأخذ صفة لتقرب من الملك.. والتمسح بأعتابه. ومعنى هذا أن حريق القاهرة.. قد التهمت نيرانه الأحقاد المتبادلة بين الإنجليز والحكومة والبرلمان والقصر.. وأصبح الموقف

أشبه بمخالفة جديدة بين خصوم الشعب.. موجهة إلى قلب الشعب.. لطعنه في الصميم..

التأم شمل الخصوم على مائدة واحدة.. على حساب الدماء والأشلاء ويقضي لأمر حين تغيب (تيم) ولا يستأذنون وهم شهود فهل كان الملك والحكومة والبرلمان والإنجليز ينتظرون بفارخ الصبر.. جنازة كمأساة القاهرة.. لشبعوا فيها لطما وشمائة..؟!

وهل أقيلت وزارة "السلف العظيم" ليأتي علي ماهر، بأمر ملكي، مضمونه صرف الشعب عن كفاحه، وتحويله عن قضيته الأساسية.. حينما أرخص أسعار الحلاوة الطحينية قرشاً في الأفة. والسكر قرشين.. مع زيادة إنتاج السمن الصناعي.. والزيت. والأقمشة الشعبية؟..

والإقرار بمبدأ "السلف العظيم" كان لا يمكن أن يجعل علي ماهر يتنفش في جو خانق عبأ أنفاس الشعب.. تلك الأنفاس الحارة الملتهبة.. ولكن هكذا أراد علي ماهر لنفسه.. في دفاعه الضمني عن الوفد.. وصدق القائل وهو الشعب وقد بقى:

فـــي قـــوم يزكـــي بعضـــهم   بعضـا ويـدفع معـور عـن معـور

وهل كان علي ماهر يظن أنه يحسن صنعاً باتخاذ هذه التدابير كتمهيد لمفاوضة الإنجليز بشأن الجلاء في الموعد الذي تحدد لذلك وهو أول مارس.. فإذا به يستقبل من الحكم في هذا الموعد.. لعدم

قدرته على تحمل الأعباء الثقال.. إلى طرحها الشعب على عاتقه..؟! وعلى كل حال.. لقد فاز علي ماهر يرضي الوفد.. وباء بسخط الشعب.. وخلفه أحمد نجيب الهلالي.. صاحب "مخالب القطط" الوفدية القديمة.. فاستصدر مرسوماً يحل البرلمان.. وأخفى فشله هو الآخر في المفاوضات مع الإنجليز على ترويض الشعب وتخدير أعصابه.. فحمد إلى سياسة تطهير الأداة الحكومية من آثار المحسوبية والاستثناءات التى تعتبر من مخلفات الوفد.. ورواسب مخازيه. ولم تمتد إليها يد علي ماهر بسوء.. إكراماً لسلفه العظيم..

واستقال الهلالي بدوره في ٢٨ يونيه سنة ١٩٥٢ غير مأسوف عليه بعد أن وضع قضية البلاد على الرف يعلوها تراب الإهمال، ويعشش على جوانبها عنكبوت الخزى والخذلان، ومن الطبيعي أن تلتوي الطرق ما دامت البداية غير سليمة.

إذا أفسدت أول كل أمر أبت إعجازه إلا النواء

وجاء حسين سري ليستقيل بعد عشرين يوماص من توليه المنصب.. فقد تحرج الموقف، وأوجده الملك في ورطة.. بأصراره على تعيين الحاشية في الوزارة، وأعيد الهلالي ثانية لتنفيذ الرغبات الساميان: تعيين إسماعيل شيرين وزيراً للحربية.. كما فرض كريم ثابت ليكون وزير دولة في حكومة سرى، بعد أن أخذ يقرب من الملك حتى لقى الحظرة لديه فجعله مستشاره الصحفي.

المحاكمات

على أثر حريق القاهرة الذي روعت به البلاد واجتاحتها بسببه عوامل القلق، وعدم الاستقرار في جهاز الحكم، شكلت محكمة عسكرية عليا، لمحاكمة المتهمين بالاشتراك في أعمال التخريب والتدمير.

وتوالت المحاكمات وصدرت الأحكام، ومحكمة التاريخ لم تنعقد، ولم يصدر حكم إلى الآن، ولكن شيئاً واحداً يسترعي الانتباه حقاً هو أن حريق القاهرة قد بدأ بحرق (الأوبرا) وهي دار التمثيل، ولم تخمد النيران إلا بعد حرق العرش. وهكذا أسدل الستار الختامة للرواية التمثيلية، والشعب المصري دائماً هو المفترى عليه.

بعد خمسة عشر يوماً

كان من الطبيعي أن تفرض الأحكام العرفية رقابتها على الصحف، وتمنعها من نشر كل ما يمر حدث حريق القاهرة، حرصاً على سير التحقيقات، فلزت دور الصحافة جانب الصمت فترة ليست بالقصيرة أدت إلى بليلة في الأفكار، وتودلت فيها التهم بين الحكومة والقصر وبعض كبار المسئولين في الأحزاب والإنجليز والشيوعيين والإخوان والصهيونيين، وإذا بذار (أخبار اليوم) تشق هذا الصمت القاتل بإنهام صريح لفؤاد سراح الدين بحرق القاهرة، ويحميله المسئولية كاملة فيما حدث..

وبادرت (جريدة المصري) بنشر بيان طويل خطير لوزير الداخلية الوفدي الذي تم في عهده لزاهر "حريق القاهرة".. أراد سراج الدين ببيانه المنشور صباح، ١ فبراير سنة ١٩٥٢ أن يضع حداً للتهم التي شنت غاراتها عليه (دار أخبار اليوم)، والتي كشفت مخازي الوفد من سرقات ومحسوبيات نشرتها تباعاً، مشوفعة بالصور الناطقة، وتناولت فضائح الوزراء الوفديين وألاعيبهم في سوق القطن وتراخيص الاستيراد، تحقيقاً لمكاسب ردية، وأعتماداً على مناصبهم الوزارية، واستغلالاً لها، وظناً منهم أن الوزير كالملك: ذاته مصونة لا تمس..

وألقى سراج الدين التبعة على كبار المسئولين في الجيش لإهمالهم أرسال القوات إلى مكان الحادث، وقد تردد طويلاً في طلب نزول الجيش فهو يتصل بالقصر ليطلب نزول بعض وحداته منه، ثم يقول ثانية: لا داعي.. ويعود ملحفاً في الطلب بنزوله لخطورة الحالة وتفاقم الحريق، كل ذلك بالتليفون طبعاً ومن منزله، وأثناء مأدية الغداء الملكية التي شمل بها الملك بعطفه ضباط الجيش والبوليس، وانفضت بعد الظهر، ونصحهم عثمان المهدي باشا بالانصراف إلى بيوتهم توا بعيداً عن أعين المظاهرين، حرصاً منه على هيبة الجيش، وخشية وقوع احتكاك المدنيين بالقوات المسلحة..

وقد بذل سراج الوفد في تحبير بيانه هذا مجهوداً لا بأس به، لإقناع الشعب المفترى عليه أنه بريء من الذنب، براءة الذئب من دم ابن يعقوب، وكأنه يتمثل بقول الشاعر:

إنني لست من جنانها علم الله وإني بحرها اليوم صالي

ونسى سراج الدين أو تناسى قول الأقدمين: (يداك أو كستا وفوك نفخ) فذهبت مثلاً..

ولما كان بيان سراح الدين ينطوي على اتهام صريح للجيش بالإهمال في هذا الصدد، فقد أمر علي ماهر رئيس الحكومة بالتحقيق فوراً مع صاحب البيان فيما جاء على لسانه بجريدة المصري بعد خمسة عشر يوماً من الحادث المشئوم.

مصر في جنازة قاتليها

لم تكد حرائق القاهرة يخمد فيحها اللاقح، حتى أصابت الفاجعة بريطانيا العظمى والعالم الحر معها ودول المستعمرات فيما وراء البحار، لم لا وقد مات جورج السادس ملك الإنجليز في ٦ فبراير سنة **١٩٥٢** بعد حريق القاهرة بأيام، وآل التاج البريطاني إلى الملكة اليصابات...

وحرصت حكومة فاروق على ألا يفوتها واجب التعزية في الفقيد الراحل، فالمشرقان عليه ينتحبان، قاصيهما في مآنم ولدانى، فلا أقل من إيفاد "بعثة الشرف المصرية" إلى لندن برئاسة الأمير السابق محمد عبد المنعم وعضوية عبد الفتاح عمرو سفير مصر السابق المسحوب من لندن، ومصطفى صادق مدير شركة (سعيده) للطيران، للشركة التي المالك في رأسمالها عدد كبير من الأسهم الرمزية لأنه شريك مرفوع..

سافرت البعثة على متن طائرة خاصة للاشتراك في تشييع جنازة فقيد بريطانيا، التي اعتدت بدباباتها ومظلاتها ومدافعها على شرف حكومة مصر وعرش مصر وشعب مصر، وأعدت الفتيل، وغمته في البترول، وأشعلته بأول ثقاب في جيبها.. فاشتعلت القاهرة..

وبالغ فاروق في التعبير عن أعمق أحاسيسه باللوعة والأسى على فقيد العالم الحر، وفقيد ما وراء البحار، مما أنساه أفراحه الموصولة، فلم يطفيء لهيب أحزانه إلا تأكيده للملأ الأعلى بأن المصاب قد حز في فؤاده، وأثار لواعج الحزن، ولهذا أناب عنه الأمير محمد علي وعلي ماهر والوزراء ورجال السلك السياسي لحضور حفلة الصلاة على روح الملك الراحل في الكاتدرائية الإنجيلية بمصر في تمام الحادية عشرة من صباح الجمعة ١٥ فبراير سنة ١٩٥٢.

في هذه الساعة، حيث يقيم المسلمون فريضة الجمعة في الجوامع، يكون ممثلو مصر حكومة وعرشا وهم مسلمون، ويعرفون جيداً أن دين الدولة هو الإسلام، يكون هؤلاء بصفة رسمية وبأمر ملكي، تحت قبة الكنيسة، يبكون مع الباكين، المناظير السود على عيونهم، وشارات الحداد على صدورهم.. وأذرعهم.. يفعلون ما يؤمرون...

وانتهت أيام الحداد الرسمية.. على الملك الراحل.. في مصر.. وارتفع العلم المصري بعد تنكيسه فوق القصور والدور.. وجاءت

حكومات وأعقبتها حكومات وأذيعت بيانات.. ونشرت بيانات.. وكثرت المحاكمات.. والاعتقالات.. للبحث عن الفاعل.. ونهو اللازم..

وحل شهر رمضان.. أول رمضان بعد الفوران والغليان.. وطبعاً فتحت أبواب الجنة.. وغلقت أبواب النار، وسلسلت الشياطين.. وعقد وزير الداخلية مرتضى المراغي مؤتمراً صحفياً بمكتبه.. وزع فيه على الصحفيين النطق السامي للتهنئة بحلول شهر الصيام والقيام. ونشر البيان الملكي بما يليق به في الصفحات الأولى حول صورة الملك في إطار كبير..

ومما جاء في هذا البيان.. "إن سياستنا هي سياسة الحرية والوحدة.. وقد وحدت بين العرش والأمة والحكومة وستبقى أمناء على هذه السياسة". تلك هي المغالطة بعينها.. ولكن يكاد المريب يقول خذونى.. فقد يرح الخفاء.. وانكشفت دلائل التصدع رسمياً في العرش والأمة والحكومة. وأدرك فاروق والمراغي بوارق الخطر.. فكان البيان المنشور بتاريخ ٢٥ مايو سنة ١٩٥٢ (أول رمضان هذا).. صورة مقلوبة للحقائق.. وما أكثر الإخصائيين في قلب الحقائق..

ذلك أن الملك قد أصدر مرسوماً بتعيين حافظ عفيفى رئيساً الديوان الملكي في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٥٢، وصدرت جريدة (نيويورك تايمز) الأمريكية تبارك هذا التعيين الذي وصفته "بالشعاع الأول من النور الذي يمزق اكفهرار جو مصر منذ أن قطعت العلاقات مع بريطانيا".

وتنبأ الاستعماريون عقب هذا التعيين "بحدوث تطورات داخلية في مصر لأن ذلك من شأنه أن يقسم الجبهة المصرية ويحول اهتمام الرأي العام من نضاله ضد الإنجليز إلى تطورات الجبهة الداخلية.." وعبرت الجريدة أيضاً عن خشية بريطانيا من "أن تجرى الحوادث في الطريق الخاطيء. فينتهي الحال في مصر إلى الفوضى ووقوع حوادث لا تحمد عقباها".

هل أدرك مسئول في حكومة مصر مغزى هذا الكلام..؟ الكلام الذي أذيع ونشر قبل حادث ٢٦ يناير بشهر كامل.. كلا.، فالحكومة في واد.. والجهة الداخلية كلها في وديان أخر.. رشوة.. فساد.. تفكك.. تواكل.. تشاؤم.. إلى آخر هذا الطابور من عوامل الهدم والخراب..

يكفى أن نذكر هنا كدليل على الانهيار الاقتصادي الناجم عن الانهيار السياسي.. وما تبعه من أصداء في المجال الدولي أن ودائع البنوك سنة ١٩٥١ كانت ٢٣٢ مليون جنيه هبطت في سنة ١٩٥٢ إلى ١٨٩ مليوناً، كما بلغ عجز الميزانية ٣٨ مليوناً من الجنيهات..

يا مضرمي النار أصبحتم لها حطبا

نيران القاهرة

لا بأس.. إذا تخيلنا يوم البعث والنشور.. وقد جيء بالجبابرة الطغاة صفاً صفا.. وملايين البشر من ضحايا عسفهم وخسفهم.. عن يمين وشمال. يشيرون بكل جوارحهم.. إلى هؤلاء الذين طغوا في البلاد.. فأكثروا فيها الفساد.. فصب عليهم ربك سوط عذاب.. إن ربك لبالمرصاد..

ولا بأس.. إذا تخيلنا، في طليعة هذا الصف الطويل.. "نيرون" الجبار.. السفاح الأكبر.. قاتل زوجه.. المتآمر على إغراق أمه.. وحارق "روما".

تولى (نيرون) حكم روما سنة ٥٤م. وكان حدثاً صغيراً.. عنى بتربيته، فيلسوف الرومان (سنيكا).. فأحسن تربيته وتقويمه.. وكان عادلاً في السنين الخمس الأولى من حكمه.. وكان حميد السيرة والسريرة.. وكلنه انقلب شيطاناً رجيماً يسفك الدماء.. ويتلهى بتعذيب البشر.. أصابته لوثة.. فصار ينشد ويغنى.. وقلب للمسيحيين ظهر المجن.. هم

واليهود فكل يأمر بسلخ جلودهم. وإلقائهم للوحوش الجياع.. تنهش لحومهم، وتفري عظامهم، في ميادين الألعاب..

جن جنونه، فقتل زوجته وأمه، واتخذ من حريق روما سنة ٦٤م ملهاة لفنه.. فكان يغني وينشد.. وهو يطل من شرفة القصر.. على الحرائق المجنونة وهي تلتهم الأخضر واليابس.. والجماهير في ذعر وهلع ما بعدهما من مزيد. وأمسكت الحقيقة بتلابيبه، ولكنه فر من سيولها الساخطة إلى أرض أحد عتقائه، فما إن أحس بيد الثوار تقترب منه، حتى طعن نفسه بخنجر وهو يقول "سيفقد العالم بفقدى منشداً فريداً".

هذا "المغنى القبيح.. الذي أحرق روما.. انتحر فمات سنة ٦٨م. وبحرق روما، وانتحاره، انقطعت سلالة القياصرة..

وليس هناك مثل للعذر الذي هو أقبح من الذنب، أبلغ من قول بعض المؤرخين القدامى عن (نيرون)، "والأرجح أنه ليس السبب في حريق روما، ولكنه اتخذه وسيلة للابقاء بالمسيحيين".

وما أشبه فاروق هذا بنيرون ذلك، هذا سليل القباصرة، وذلك سليل القراصنة، هذا حارق روما، وذلك حارق القاهرة هذا وذلك اتخذ حرق العاصمة سبيلا للقضاء على الشعب، فاحترق هو وبقى الشعب.

أم فاروق (نازلي) تنحدر من سلالة الجنرال سيف الفرنساوي، طرده نابليون من الجيش، لشراسته وعجرفته، فلما لم يجد ما يسد به رمقه، استخدمه محمد علي، لتدريب عسكره، وربطت بينهما أواصر المصاهرة..

وأبو فاروق، من سلالة محمد علي، صاحب مذبحة القلعة، ومذبحة أبو قير.. وطعن الشعب في ظهره بعد معركة رشيد سنة ١٨٠٧م.. وحليف الإنجليز..

عاش كل من فاروق ونيرون.. في هالة من النفاق والملق.. فقد ذهب نيرون لى أثينا ليشهد ألعابها فتقربوا إليه بأكاليل الغار، ليأمنوا شره.. وسقط في السباق الأولى.. فصفقوا له استحساناً.. فسر منهم... ومنحهم استقلال بلادهم.

وأصيب فاروق بكسور رضية في (القصاصين)، أثناء مطاردة نسائية، فهرعت إليه مواكب النفاق، لتقديم القرابين، والتسابق والتنافس في تقويس للظهور، وإظهار ألمغ آيات الطاعة والولاء ولما رسل إلى (كابري) و(درفيل) للاستمتاع بالعاهرات، ومصاحبة لراقصات، والسهر في المقامرات، اتخذ النحاس من (دوفيل) كعبة شريفة يرنو إليها. وهو يهنئ الشعب بالعيد، والملك عنه بعيد، فقد رأى تقلب وجه فاروق في البلاد. والنساء. فأقسم ليولينه قبلة يرضاها.. هكذا كان نيرون القاهرة.. وهكذا كان النفاق طويل التيلة..

ما أشبه الليلة بالبارحة

لم يكن حريق القاهرة.. أول حريق من نوعه في مصر، فما أكثر الحرائق السياسية التي ابتليت بها العاصمة المصرية.

ونحن إذا ضربنا صفحا عن حرائق الاسكندرية، اصمة مصر الرومانية، ومضينا إلى عواصم مصر الإسلامية في خلال القطاع الزمني المحصور بين ماضي (الفسطاط) وحاضر (القاهرة) وما تحللهما من عواصم أخرى كالقطائع والعسكر، رأينا أن لحريق القاهرة أشباها ونظائر، وأن الظروف في كل، تكاد تكون متشابهة متماثلة، أتت جميعها على الأخضر واليابس، وخلفت وراءها هضيما تذروه الرياح، ومع ذلك ما يزال في خلل الرماد، آثار الشظايا وحطام البقايا، تهتف بفكرة صارخة لا محيص عنها ولا مفر منها، وهي: أن الذين أحرقوا العاصمة المصرية في خلال ما يزيد على الألف سنة الماضية.. هم أعداء لا أبناء مصر.. أحرقوها فأحرقتهم وختمت بهم.

وسيرى القاريء الواعي. كيف نستخرج له هذه الحقيقة لامعة براقة من بين أنقاض الحرائق المتوالية.. ليتأكد تماماً أن الذين تآمروا على الشعب، وانتمروا بإضرام النار في العاصمة.. كانوا دخلاء عليها وعلى أهلها.. وغرباء عن آلامنا وآمالنا، لا أصل لهم ولا فصل، كلهم اغتصبوا الحكم على حين غفلة منا.. كلهم حثالات بشرية من قطاع الطرق، وشذاذ الآفاق، وعصبات القراصنة، من حملة البلطة– ولذا سموا

(بلطجية)- هي سلاحهم في النهب والسلب وسفك الدماء، لا وازع أو رادع من خلق ودين..

وانتهوا جميعاً إلى هذا الخاتم الحاتم، لجبروت كل نيرون: وكل نمرود. أما الشعب فهو دائماً (أبو الهول) الذي أذل الطغاة وأدال منهم، فإذا كان حريق روما قد انتهى بزوال القياصرة على يد نيرون، فإن مروان بن محمد، حارق الفسطاط قد ختم ملك بني أمية، وختم محمد بن سليمان حارق القطائع دولة بنى طولون.. وهكذا.. حتى ختم فاروق يحرق القاهرة.. أسرة الأرناؤوط.

الأمويون.. وحريق سنة ١٣٢هـ

هنا الفسطاط:

بعد أن فتح عمرو بن العاص مصر، اختار مكانا يحل محل الاسكندرية ويصلح عاصمة لمصر العربية، ويتلاءم مع ظروف الخلافة، وسهولة الاتصال بمركز الإسلام، فأنشأ الفسطاط.

وقد أسهمت مصر في الصراع الحزبي، الذي نشب بين أنصار علي، وأنصار معاوية، بعد مصرع (عثمان)، ولما رجحت كفه (علي) على كفة (معاوية)، كان ذلك نصراً لمصر، وإيذاناً ببداية نهضة المصريين، حتى إذا اغتيل آخر الخلفاء الراشدين (علي)، وانتقلت الخلافة إلى (معاوية) رأس الأمويين، أصرها المصريون في أنفسهم، وزادت كراهيتهم

لبني أمية، لما انغمسوا فيه من ترف ونعيم، ظلوا يتقلبون في مظاهرها ردحا من الزمن، وكان آخر الأمويين مروان بن محمد.

فر مروان إلى مصر، واستقر بها، وخالجته عوامل الضغن القديم على مصر والمصريين، وانحدرت إلى صدره العداوة التقليدية بين المصريين وبين بنى جلته، كابرا عن كابر، فما إن وطئت قدماه أرض الكنانة، حتى أمر بإضرام النار في الفسطاط (١٣٢هـ- ٧٤٩م).

وكان عبد العزيز بن مروان: (٦٥-٨٦هـ) قد عنى بإقامة قناطر على النمط الروماني الشرقي، بواسطتها تصل المياه من عيون قريبة من جبل المقطم إلى البركة الكبرى التي أنشأها! ومن بين هذه القناطر، قنطرة تصل الفسطاط بجزيرة الروضة، أتى الحريق على هذه القنطرة فدمرها.

وعبر الأموى الهارب، مروان بن محمد، إلى الشاطيء الغربي للنيل، وتبعه إلى هناك جيش العباسيين يقوده (صالح بن علي)، و(أبو عون ابن يزيد)، فقتله هو ومن معه، في بلدة (بوصير) بالفيوم، واحتزوا رأسه من جسده، وطوفوا به في أنحاء البلاد، على رءوس الأشهاد، إشارة إلى غروب شمس بني أمية في مصر، وبزوغ حكم العباسيين بها.

وهكذا ختم مروان الدخيل دولة الأمويين بحريق الفسطاط بعد أن قضوا ٨٢ سنة، تماماً كما ختم فاروق الغريب دولة محمد علي بحريق

القاهرة بعد أن لبثوا في الحكم ١٥٠ سنة، وكما ختم نيرون عهد القياصرة، بحريق روما.

العباسيون.. وحريق سنة ٢٩٢هـ

هنا القطائع:

رأينا كيف أن مروان بن محمد كان آخر سلالة بنى أمية، حارق الفسطاط، الذي لقى حتفه، فكان مصرعه الأليم خاتمة المطاف، لحياه كلها بذخ وترف وإسراف.

ويشبهه (خمارويه).. آخر عنقود في دولة بني طولون.. تمادي في البذخ ولاسيما في جهاز بنته (قطر الندى) وزفافها للخليفة العباسي المعتضد (٢٨٢هـ) و(القطائع) يومئذ عاصمة الطولونيين، فكان الموت أسرع إلى تجميد المصاهرة.. قبل تمامها بين مصر والعراق.. وحالت الحواجز والقواطع بين بغداد والقطائع.. بين العباسيين والطولونيين.. بين العراقيين والمصريين. فقد مات المعتضد (٢٨٩هـ) بعد أن سبقته إلى الموت (قطر الندى) بقليل.. ومن قبلها (خمارويه).

وكانت مصر في ازدهار.. أطمع فيها بني العباس. فهذا (المكتفي) يبعث فائده وكاتبه محمد بن سليمان.. ليعيد مصر إلى حظيرة العباسيين. كما كانت قبل الجهود التى بذلها أحمد بن طولون في الاستقلال.. وكملت بالنجاح.

إنهزم الأسطور المصري في هذه الملحمة. وفر هارون بن خمارويه إلى (العباسية) الواقعة على حدود مصر والشام.. وهناك فتك به عماه شيبان وعدى.. وجاء شيبان بعد الفراغ من دم ابن أخيه.. ليتولى أمر مصر.. فلم يرض به الجند.. وفاوضوا محمد بن سليمان.. فتقدم إلى الفسطاط.. على عجل.. ومضى إلى القطائع (٢٩٢هـ-٩٠٤م). وأشعل فيها النار. فالتهمت الدور والقصور والمساجد والحمامات. وأتت على الأسواق والبساتين،. وصارت أثراً بعد عين. ولم نعد إلا خرائب يتعق فوق أطلالها البوم والغربان.. ولم يبق غير المسجد الجامع شاهداً على طغيان ابن سليمان الى ختم بحرق القطائع دولة بني طولون.. تلك الدولة التي دامت ثمانيه وثلاثين عاماً. بعدها صفا الجو لقائد المكتفى وكاتبه.

غير أن هذا الصفو لم يدم أكثر من أربعة أشهر. ابتز فيها أموال الشعب بالسحت والرشوة. والنهب والسلب.. فكان ذلك سبباً في أبعاده عن البلاد.. ونفيه إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم.

الإفرنج.. وحريق سنة ٣٨٣هـ

هنا القاهرة:

فتح جوهر الصقلي مصر لحساب المعز لدين الله الفاطمي.. مؤسس القاهرة.. وبنى جامعتها العريقة "الأزهر" وقد خلفه في الحكم ابنه العزيز بالله.. وكان العزيز مغرما بإنشاء الأساطيل.. تجوب البحار.. وتؤدب القراصنة.. وتحمي الثغور الإسلامية.

وكان بالمقس.. دار صناعة السفن، لا يبطل فيها العمل ليلاً أو نهاراً، وكان يسكن بجواره هذه الدار طوائف النصارى والإفرنج.. نعرف من بيوتهم دار ماتك.

وكان يوم ٢٤ ربيع الآخر سنة ٣٨٦هـ.. يوم جمعة.. خرج فيه المسلمون إلى الصلاة الجامعة، وما إن انتهوا منها حتى رأوا النيران قد نشبت في دار الصناعة. فاحترقت بعض قطع الأسطول، ولم يبق إلا ست عشاريات، بعد أن التهمت خمساً منها، وبادر ذوو الشهامة إلى معاونة البحارة ورجال دار الصناعة.. على إخراج السلاح خوفاً من المضاعفات.

وثار الشعب ضد اللاعبين بالنار، وأقسم على الانتقام من حارقي أسطوله، ومطايا تجارته الخارجية، وانقض المتظاهرون على النصارى، وعلى الإفرنج، وقد تبين أنهم هم الجناة، فنهبوا دورهم، وقتلوا منهم مائة رجل وسبعة، ولم ينج من هذه المذبحة إلا من حبس نفسه في عقر داره.

وظلت الشرطة تحقق وتدقق، حتى اعترف الإفرنج على أنفسهم اعترافاً كاملاً بتفاصيل المؤامرة، وعندئذ أتى بهم متولي الشرطة (مسعود الصقلي)، وأمر فضربت أعناقهم بالسيوف..

شاور.. وحريق سنة ٥٦٤هـ

هنا القاهرة:

بلغ العاضد الفاطمي من الضعف إلى حد أن تنازع سلطاته وزيراه (شاور) و(ضرغام)، واحتجب الخليفة، وصار لا يهش ولا ينش، وتمكن شاور من تدبير مؤامرة يتخلص بها من ضرغام، الذي فر إلى الشام.. مستنجداً بنور الدين محمود زنكي، صاحب الشام الرابض بها كالأسد الهصور في وجه غارات الصليبيين، ونجح ضرغام في إغراء نور الدين. بغزو مصر.. فصادف ذلك هوى في نفسه، وأرسل معه جيشاً كثيفاً يقوده أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي..

وانهزم المصريون. وخر ضرغام صريعاً في المعركة، وأدرك شاور أن الحوادث أصبحت أكبر منه.. وأدرك الخطر محدقاً به من كل جانب.. فلجأ إلى عدو عدوه.. الصليبيين.. الذين روعوا سواحل مصر بغاراتهم براً وبحراً..

أشار (شاور) على (عموري) ملك الإفرنج بحرق العاصمة في ٩ صفر سنة ٥٦٤هـ.. فأصدر أمراً عاجلاً بإجلاء الناس عنها.. متوعدا متهدداً. فساد الذعر.. وعم الخطب.. ولم يدر الآمنون الوادعون.. أين يذهبون.. بأموالهم وعيالهم.. ونسائهم وشيوخهم.. وعجزوا عجزاً تاماً عن حمل أي شيء مهما خف وغلا..

أرسل شاور عبيده. وبأيديهم المشاعل.. ومن خلفهم صهاريج الزيت.. وأضرموا النار.. في كل مكان تصل إليه مشاعلهم.. بلا رحمة.. وبلا تمييز.. وظلت النيران تضطرم.. والمشاعل تنقدم.. حتى احترقت الفسطاط عن آخرها..

واستمرت النار تحصد المساكن.. والأماكن أربعة وخمسين يوماً كما استمر الصليبيون يعيشون فساداً في البلاد. يهدمون المساجد.. ويسلبون الناس ما معهم.. ويهتكون الحرمات..

وفي إبان هذه الحرائق.. أرسل شاور (شمس الخلافة) إلى (عمري) في معسكره.. وسأله أن يخرج معه إلى خارج خيمته.. وأشار بيده إلى الدخان.. المتكاثف في سماء مصر.. ودار بينهما الحوار الآتي:

– أترى دخاناً في السماء؟

– نعم.

– هذا دخان مصر..

– ؟!..؟!

– فإني ما أتيت إلا وقد أحرقتها بعشرين ألف قارورة من النفط، وفرقت فيها عشرة آلاف مشعل.. ولم يعد فيها نفع.. فحل عنك الآن مدافعتي.. ولكن كما قلت لك أنزل في مكان تقدمت إلى غيره.. ولم يبق لك إلا أن تنزل القاهرة..

– هو كما تقول.. ولابد من نزول القاهرة.. ومعي إفرنج من وراء البحر قد طمعوا في أخذها.

ونزل (عموري) بخيمته في القاهرة، وصارت اسلهام التي صوبها الشعب إليه تنهال عليها من كل مكان. تقع في خيمته أو منها بقريب، واشتدت المقاومة الشعبية عنفا. فأدرك شاور وخيم العاقبة، بالنسبة إليه أولاً. ثم بالنسبة لحليفه، فعرض عليه أن يدفع له اربعمائة ألف دينار يأخذ منها ربعها فوراً.. في نظير وقف القتال.. ولم يجد (عموري) ما يمنعه من قبول هذا العرض السخي..

أما العاضد.. فقد استنجد بنور الدين في الشام.. وبعث إليه بشعور نسائه.. فوافاه منه جيش يفوده شيركوه وصلاح الدين للمرة الثانية... ونصب صلاح الدين كمبنا لشاور.. واغتاله.. وتخلص منه وخلص الشعب من شره.. فهو الذي استقدم العدو إلى مصر.. وأشار بحرق الفسطاط.. وتعهد للإفرنج بثمن تدخلهم لحسابه الجاري.. وسمح لهم بحامية دائمة في مصر.. وباسمه استحلوا السلب والنهب.. ولكن صلاح الدين– الذي لقبه الخليفة العاضد بالملك (الناصر)– لم يكتف بقتل شاور.. بل أطاح معه برءوس ابنه الكامل وأولاد إخوته جميعاً. وأرسل العاضد برءوسهم إلى أسد الدين شيركوه.. في أطباق من الفضة.. وهكذا كان ختام الخونة المارقين.. رءوس الفتنة.. والخيانة.. والحريق.. وسرعان ما رجع (عموري) بجيشه الفاشل.. عندما بلغته أنباء المدد الذي جاء به إلى مصر جيش نور الدين..

الصوفي.. وحريق سنة ٩٧١هـ

هنا القاهرة:

وابتليت مصر بالاحتلال التركي.. فاجتاحتها أعاصير الفوضى. واضطربت فيها حبال الأمن.. وتحكم في رقاب أهلها مسوخ بشرية.. لهم كروش كجهنم لا تشبع.. تقاصرت فترات ولا يتهم وعز لهم.. فألهبوا ظهور الشعب بالسياط..

من هؤلاء الولاة الطغاة. (علي باشا الصوفي). جاء مصر في أول رجب سنة ٩٧١هـ قادماً من بغداد.. فأرخى لنفسه عنانها في المظالم والمغارم.. وقامت طائفة (الفداوية).. فأوقدوا النار في القاهرة.. لخلق حالة من الذعر.. على إثرها تمكن السلطان وعساكره.. من إشباع بطونهم. مما خطفوه من أيدي الناس.. وامتدت النيران إلى (الجامع الأبيض).. وما من شيء أتت عليه إلا جعلته كالصريم..

ولم يخطر ببال الشعب.. أن يجأر بالشكوى إلى الوالي.. المعتكف بالبرج العاجي.. ولن يكون الشعب في شكاته إليه.. إلا كالمستجير من الرمضاء بالنار.. فقد دلت الظروف على أن الوالي شريك اللاعبين بالنار.. وقيمهم فيما يسلبون... ثم هو لا يملك لهم دفعا لأنهم لا رواتب لهم.. ولا نظام يجمعهم.. هم عصابات من الدلاة.. من الجنود المرتزقة. إذا لم يطلقهم كالكلاب تنهش الأعراض. انقلبوا عليه وفتكوا

به "وكأنه كان يقاسم أهل الفساد فيما يسرقونه" كما يقول صاحب (الكافي).

وأدرك الشعب خطورة الموقف.. فتعاون أهل الخير.. على إقامة سور عظيم.. يمتد من (قنطرة الحاجب) إلى (الجامع الأبيض) للحيلولة بين العاصمة وبين غدرات أرباب السوابق.. وحملة البلط.. ورابط الحرس الوطني من المتطوعين حول الأسوار.. فهدأت الخواطر.. وانطفأت الفتنة.. والوالي (على قلبها إلى طولون).

ولم تكد تخمد نيران الحريق.. لاحريق الصوفي.. حتى جاء فرمان العزل.. وأعقبه فرمان بتولى محمد علي باشا الشهير بالمقتول شئون مصر. فجاء يستعجل الزفة التقليدية إلى القلعة.. ويز "سلفة العظيم" في عسفه وخسفه.. فقد ملأ الأرض مثله ظلما وهضماً.

وثقيـــــل مــــا برحنـــــا نتمنـــــى البعــــد عنـــــه
غــــاب عنـــا ففرحنـــــا فـــــأتى أثقــــل منــــــه

كلير ومراد.. وحريق سنة ١٢١٤هـ

هنا القاهرة:

قدم (نابليون بونابرت) إلى مصر. في إحدى مغامرات القرصنة التي تلقى دروسها عن أسلافه الفرنسيين.. ولم يكد يطيب له المقام بمصر..

حتى لاذ بالفرار.. تحت جنح الظلام.. وألقى بمستقبل مغامرته بين يدي خليفته "كليبر".. وحمله أمانة الحرص على حياة كل جندي فرنسي في الحملة الفرنسية، وقامت ثورة القاهرة (١٢١٤هـ- ١٨٠٠م) ولم يدع الشعب وسيلة للدفاع عن نفسه إلا سلكها. وإذا اختصم اللصان ظهر المسروق.

والمسروق هو الشعب.. واللصان المتخاصمان هما دولتان: دولة الفرنسيين.. ودولة المماليك.. وكلتا الدولتين في حرج أمام شعب اتخذ عدواته لهما دينا. وجعل كفاح مظالمهما عليه عهداً، وتصاغرت الدولتان أمام هذا الشعب العملاق.

فهذا مراد بك يبدي رغبته للفرنسيين "في أن يعيش في سلام ووفاق مع الجيش الفرنسي في مصر"، واعترف (كليبر) بإمارة مراد بك على الصعيد في مقابل خراج يدفعه له، وهكذا تم الوفاق بين اللصوص.

تحالف المماليك مع الشيطان ضد مصر. التي آوتهم وأطعمتهم. ولكن عز على الصعاليك المماليك أن يروا حليفهم كليبر. وقد صار قاب قوسين أو أدنى من لهيب الثورة الشعبية الجارفة. فأسرع مراد إلى كليبر، وتطوع له بحل ينجيه من عذاب أليم. أشار عليه بحرق القاهرة. لإخماد ثورة القاهرة، وأرسل مراد- كما يقول (ريبو)- المراكب من الصعيد محملة بالمواد الملتهبة لإضرام النار. وشهد بذلك (جالان) وأضاف أن مراد بك أرسل الأحطاب بالمراكب عبر النيل، فلما وصلت لم يسمح

لها الفرنسيون بتفريغ حمولتها إلا بعد دفع الرسوم الجمركية المقررة على "حمالة الحطب".

وأشعل الفرنسيون النار في الأحياء الآهلة بالسكان. فهلك الآمنون الوادعون. تحت الأنقاض: في الأزبكية، وباب الحديد، وبولاق وباب الشعرية، والفوالة، وباتت القصور والمتنزهات أطلالاً وخرائب وزادت النار اشتعالاً. بفضل أطنان القنابل التي أمطر الفرنسيون بها مدينة القاهرة. من كل جهة. وتسابق جنود الاحتلال كالكلاب المسعورة يفتشون في الأنقاض. وينبشون الجثث والأشلاء ليسلبوا ما كان عليها من الحلي والمجوهرات. "واستمر ضرب المدافع والقنابل والبنادق والنيران ليلاً ونهاراً حتى كان الناس لا يهنأ لهم نوم ولا راحة ولا جلوس لحظة واحدة من الزمن" كما يقول الجبرتي.

وحصد الجناة وبال ما غرست أيديهم.. فقد جلا العثمانيون عن مصر واغتيل (كليبر) بطعنة من خنجر سليمان الحلبي.. وانقشع الكابوس الفرنسي.. إلى غير عودة.. وشيع المصريون جنود الاحتلال.. باللعنات ومنذ ذلك الحين حتى اليوم وهم يخوضون في أو حال الخيبة والفشل مدى قرن ونصف قرن من الزمان.. في مصر.. في سوريا.. في مراكش.. في تونس.. في (ديان بيان فو).. وفي الجزائر..

والليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبه

فاروق.. وحريق سنة ١٣٧١هـ

دار الفلك دورته. وظن الغافلون أنه لا يدور.. وعاد فاروق السفاح يختزل سيرة أسلافه. من ورثة نيرون. وسلالة (نمرود).. الذين أحرقوا.. الفسطاط.. والقطائع.. والعسكر.. والقاهرة.. فجعلت منهم عاصمة مصر.. عبرة التاريخ..

هل غاب عن فاروق.. أن حريق القاهرة.. سيكون خاتمة لمائة وخمسين سنة من تاريخ أسرته.:؟..

وهل غاب عن فطنة النحاس وسراج الدين.. أن حريق القاهرة. سيكون كالجلاد العملاق الذي خنق آخر ملك بأمعاء آخر وزير؟؟

وهل غاب عن دهاء محترفي السياسة.. من زعماء الأحزاب.. أن شعب مصر سنة ١٩٥٢.. وطوال ظروف هاتيك الحرائق الماضية. كان لا يمكن أن يبوء بإثمها وعارها..؟!!

ولكنهم.. هم دائماً وأبدا الدخلاء الغرباء.. المتآمرون على الشعب.. المتجرون في قوته.. المتربصون بمستقبله.. القاعدون له بالمرصاد.. هم الذين أضرموا النار.. فاحترقت بها أيديهم..

ومن المهازل التي برزت معالمها في هذه المحنة.. أن بعض موظفى الشركات التى التهمتها الحرائق.. كانوا يسرقون.. ويتقدمون ببلاغتهم إلى البوليس.. ليلصقوا التهمة بأحد أفراد الشعب. ولكن تحقيقات النيابة

كشفت ما وراء الستار.. فقد سرق موظفو شركة (سبيكو) للمقاولات الهندسية. دولارات سويسرية ذهبية، وأوراقاً مالية.. من أدراج المكاتب والخزائن.. وادعوا أن مجهولين.. من الغوغاء.. هم مرتكبو السرقة.. أثناء حريق القاهرة.. المفترى عليه.

فهل يصح في الأذهان أن طلبة المدارس والجامعات والموسيقيين والعمال.. وجنود البلوكات.. ورجل البوليس. قد ألف بينهم سبق الإصرار على الانفاق الجنائي..؟

وهل يصح في الأذهان أن هؤلاء الغلمان.. الذين حوكموا.. ولم تزد أسنان بعضهم عن الثانية عشرة.. هم الذين أحرقوا القاهرة؟

إن الذين أحرقوا القاهرة عسابة مؤلفة من أربعة عناصر:

حكومة الوفد.. وبرلمان الوفد.. والملك فاروق.. والإنجليز.. وكان لكل عنصر دوره المرسوم له.. حسب خطة موضوعة.. علم أو لم يعلم.. فعل أو لم يفعل..

– حكومة الوفد: يتخاذلها، وعدم اتخاذها التدابير اللازمة لحفظ النظام، الكفيلة بالأخذ على أيدي العابثين بالأمن الداخلي قبل حدوث مالا تحمد عقباه، وهذا الترك هو الذي مهد للجريمة، فعبرت على قنطرته على حين غفلة من حراس الأمن.. والترك معاقب عليه قانوناً وعقلاً، وشرعاً..

– برلمان الوفد.. طبل وزمر، بالإجماع، ولم يجرؤ واحد من النواب أو الشيوخ على تعليق الجرس في عنق القط، ولم يشأ أحد منهم أن يحرج الحكومة، بدافع التضامن الحزبي، والانتصار للحكومة ظالمة أو مظلومة، ولو كان هؤلاء يستحقون شرف التمثيل عن الشعب والتحدث بلسانه، لأمسك بخناق الحكومة لتكشف لهم عن أوراقها، وبذا يطمئن الشعب إلى ممثليه، والدفاع عنه عملياً أمام سائر الأجهزة، ولكنه والحق يقال، كان أشبه بالرئة المعطلة، لا شهيق ولا زفير.

– الملك فاروق.. بتنكره للشعب، وتغاضيه عن كفاح الشعب، وانغماسه في اللهو والمجون، غير عابيء بأوجاع الأغلبية الساحقة. الغارقة في الأوحال إلى الأذقان، وإقامته المآدب تلو المآدب، بينما المآسي في كل بيت على الشهداء، وبينما المظاهرات والحرائق تزحف زحفاً سريعاً كأنها والخراب على موعد..

– الإنجليز.. بمؤامراتهم وتدابيراتهم، واستغلالهم للخونة المأجورين لتعكير الجو على الشعب، في كفاحه النقي، وتعطيله عن الحصول على ثمرة النصر المنتظر، لهذا وضع الإنجليز جميع العراقيل. في طريق الشعب. وقد دنا أجل الاستعمار، وبدأ يلفظ آخر أنفاسه، في مصر، بعد أن لفظها من قبل في الهند وإيران والسودان.

هؤلاء جميعاً، هم الذين جمعوا الحطب، وأشعلوا النار، وألقوا بالشعب في أتونها المتقد، فكانت بردا وسلاماً على (إبراهيم)، وخزيا ووبالا على (النمرود)..

رب ضارة نافعة

ناقوس الخطر

بعد أن أعفيت وزارة النحاس من الحكم على أثر حريق القاهرة.. تقلب على دست الحكم أربع وزارات في خلال ستة أشهر. إن دلت إقالاتها أو استقالاتها على شيء.. فإنما تدل على عبث (فاروق) بالدستور.. وتدخل السافر في شئون الحكم.. بما يحقق له ولحاشيته مآرب ومنافع.. دونها كل جشع.. ألم يكن هذا وحده كافياً لدق ناقوس الخطر.. لتنبيه الغافلين إلى سوء المصير..؟!

ومما كان يبعث على الأسى حقاً.. أن فاروق عاد فكلف حسين سري.. بتأليف وزارة جديدة.. وفى الوقت نفسه كلف محمد بهي الدين بركات.. بنفس المهمة.. رئيسان في آن واحد.. يعملان على تأليف حكومة واحدة..

والصحف بدورها ننشر أنباء هذه الاتصالات.. وخط سير المشاورات.. وصور المقابلات والصالونات..

فهل كان كل من الرئيسين المكلفين بالموضوع يجهل ما يفعله الآخر.! لا أظن.. ولكن هو التسابق الذي يؤدي إلى الحصول على قصب السبق. من ناحية وتسلى فاروق بمشاهدة المتسابقين يلهثون ويعرقون، المهم أن يوم **٢٣** يولية سنة **١٩٥٢** يطلع على الناس. والصحف والإذاعة.. ووكالات الأنباء تحمل نبأ تأليف وزارة برئاسة نجيب الهلالي.. فيضع الناس رءوسهم بين أيديهم، ويغمضون عيونهم، خشية الإغماء.

وقبل أن تدق الساعة تسع دقات.. يقطع برنامج الإذاعة فجأة صوت غير معروف.. تبين فيما بعد أنه صوت أنور السادات، أحد الضباط الأحرار، وهو يذيع بنفسه من محطة الإذاعة بالقاهرة، نبأ استيلاء الجيش على المرافق الرئيسية.

في هذه الساعة.. كانت الاسكندرية– عاصمة البلاد الثانية– مركز النشاط في ظاهره.. نظراً لوجود الملك بها.. والوقت صيف. ودولاب العمل.. مقره الصيفي.. دار الوزارة ببولكلي، برمل الاسكندرية. والوزراء والأمراء. يصطافون في مصر وفي خارج مصر.. كل في فلك يسبحون..

وعندما أذاع أنور السادات هذا البيان، كان الوزراء لا يزالون يغطون في سبات عميق، بعد المجهود المضنى الذى بذلوه في الاستعداد لتقبل التهاني في مكاتبهم ذات المقاعد الوثيرة، والستائر الشفافة، والمراوح الكهربائية، والأكواب المذهبة المثلجة..

وغاب عنهم وعن غيرهم من العالمين ببواطن الأمور، أن ناقوس الخطر قد دق، وأن الخطر الذي كان على الأبواب، أخذ يحبو من تلقاء نفسه حتى أصبح محدقاً بكل شيء، ومطبقاً على كل شيء، وإذا بالرقاب في قبضته..

طلع الصباح فأطفأ القنديل الهزيل، وضرب موسى بعصاه، فبهت الذين طالما سحروا أعين الناس واسترهبوهم، وجد الجد، وآمن الجميع بالمثل السائر: (اليوم خمر.. وغدا أمر)..

فقد ظهر "الصباط الأحرار" وأعلنوا الثورة، لا بل بلغت بهم اللباقة إلى حد أنهم تركوا الشعب يتهامس ويتغامز حتى قال الشعب بنفسه إنها ثورة.. وتلك المنى لو أننا نستطيعها..

إن الضباط الأحرار قطفوا الثمرة قبل الموعد الذي حددوه لنضجها بسنتين، ولكن جدت عوامل أخرى رفعت من درجة الحرارة، فأسرعت الثمرة إلى غاية نضجها، فقد أينعت وحان قطافها..

إنهم وهم كانوا لا يزالون بصدد استكال معداتهم للجهر بالثورة سنة ١٩٥٤ في سرية تامة ودقة حاسمة، رأوا أن الوقت كالسيف، إن لم يقطعوه قطعهم هو، وأن الزمن كالأفعوان إن لم يعجلوا به عجل بهم، وأنهم إذا لم بحثوا ثمرة (التكتيك) الذي سهروا في ضوعه ليالي وأياماً، فقد يأتي سياسي مفلوك أو غاصب مغرور فيستولى على مصر "بوضع اليد" وتلك هي الطامة الكبرى.

والظروف حقاً كانت في حالة ميوعة، تركة مثقلة بالديون، والشعب مثخن بالجراح، مما يوحي بأنها ظروف غير مواتية للجهر بالثورة، فلا يزال في العمر بقية، والتاريخ جزء من العلاج لو أحسن استغلاله، وما يزال هناك متسع للبحث وإدمان التفكير وإحكام التدبير..

وبالمراجعة النهائية للدراسات السابقة في مسودة التكتيك السري، تبين أن الهدف هو هو لم يتغير، واضح في الأذهان كما هو بالخط العريض مسطر على الأوراق، "عدل نظام الحكم.. تصحيح الأوضاع.. ووضع الأمور في نصابها" هذه هى الخطوط الرئيسية في إطارها العام..

غير أن عوامل لم تكن في الحسبان جعلت الضباط الأحرار يسبقون الزمن ويطرحون من حسابه سنتين، لقد نضجت الثورة بسبب غليان دماء الشهداء فوق نيران القاهرة.

فالنار بالماء الذي هو ضدها تعطي النضاج وطبعها الإحراق

ممارسة السياسة

نهض الهلالس من فراشه مذعوراً، وقد أيقظوه من حلم جميل لم يتم، فقام يفرك عينيه، وإذا بشبح العملاق يخايله، فيحاول أن يطرده بلا جدوى، أخيراً قامت الوزارة الهلالية الجديدة، وفعدت وانتهت إلى أن الأمور أقل مما تتصور، فيجب ألا تؤخذ بأكثر مما تستحق من جدية..

واختلط لعيها الوضع، فعمدت إلى أسلوب الوعد والوعيد، وقامت بدور السمسار، لصالح الملك، فمنيت بالفشل مساوماتها وعروضها: حاولت إغراء "قادة الثورة"، والوقوف على مدبريها، والإطاحة برءوسهم ليكونوا عبرة لكل من يفكر في مثل هذا العمل العدوانس على كرامة العرش، وجلالة صاحبه، فما بالك إذا وصف هذا التمرد، أو تلك المظاهرة، بأنها محاولة لقلب نظام الحكم.؟!

أين فاروق؟، أليس من حق الهلالس أن يبحث عنه، ويستشيره فيما أعضل على عقول وزرائه من مشاكل طارئة لم تكن في الحسبان؟! فاروق في قصر المنتزه، يستجم ويستحم، من عناء الراحة، ويتسلى بالفرجة على سباق كلاب القصر، ذلك السباق الذس انطبع في ذهنه دائماً كلما اعتزم تأليف وزارة جديدة.

ويرفع رئيس الوزارة إلى المسامع السامية جلية الأمر على صاحب العرش، الذس صار اليوم غير "المفدى" فلا يفهم الملك من كلام الرئيس النحيف إلا أنه جاء ليقوم بدور (مضحك الملك).. ولذلك أخذ يقهقه. قهقهات متواصلة. وبعدها استلقى على قفاه. ولم يتمالك الهلالس نفسه، فاستغرق هو الآخر في الضحك، ناسيا أنه في حضرة مولاه..

ضباط؟.! هل نسى هؤلاء الجاحدون نعمة الملك عليهم يوم حباهم بعطفه السامي؟! ومتى؟ والقاهرة تحترق؟! وهل نسى هؤلاء الذين

شعارهم: الله والملك والوطن، أن الملك قد أهداهم أعز شيء عنده وهو ابنه؟!

فهل صحيح أنهم يتنكرون اليوم هكذا- ما بين عشية وضحاها- لأنعم الملك؟ وأين إذن حيدر؟.. والمهدى؟.. وعطا الله؟! وأين اسماعيل شبرين؟! الذء فرضه الملك علي الهلالء وزيراً للحربية..؟!

انقلاب؟!.. مستحيل. فإن الأمر الملكء لم يجف مداده بعد، هي زوبعة في فنجان.. مجرد بصقة تطفئها..

ولكن لا شك أنه قد دار في خلد الملك أن الأمور قد تتطور من سيء إلى أسوأ، وحاول أن يفكر- مجرد تفكير فقط- في الاتصال بالانجليز والأمريكان، يطلب العون لشد أزره في محنته، فإن عيروه بموقفه الصامت بالنسبة لمعركة القنال، فلديه من الأكاذيب ما يبرر به استنكاره للنحاس ومواقفه، وعندئذ يتظاهر الإنجليز بالبلاهة وهم يسمحون لهذه الخدعة أن تمر عليهم متبالهين. ولكن المظاهر وفرائثها دلت على أن الملك لم يسمح لتفكيره السامي أن يتناول مثل هذه السفاسف..

وفوجئ الملك بثورة في نفسه، فأخذ يفتل شاربيه بحركة لا إرادية، وإذا بالدم يغلي فوارا موارا في عروقه، وبدأ يشعر برجفة باردة تسري في مفاصله، فقد أبلغه عبد الله النجومي أن الدبابات الثقيلة تحاصر القصر

ظلت تزحف من القاهرة تحت جنح الظلام حتى طلعت صباح يوم ٢٦ يوليه، والجيش بوحداته في وضع استعداد..

زاد الملك من كمية العروض والمغريات فباءت كلها بالفشل، وإذا بعلي ماهر رئيس الحكومة التي فرضتها الثورة على الملك باسم الشعب، يدخل عليه يطالبه بالتوقيع على وثيقة التنازل عن العرش لولى عهده، ومغادرة البلاد قبل السادسة من مساء اليوم..

وشهد شاطيء "رأس التين" غروب آخر يوم للملك في مصر، ونكس العلم، وطوى الجندي المصري علماً آخر وأعطاه للملك قبل مبارحته البلاد إلى متفاه حسب التقاليد..

وأسدل الستار الختامي على مائة وخمسين سنة ثقال طوال، وتم كل شئ بدون إراقة نقطة من الدم، وخلا العرش من صاحبه، وسقط التاج من فوق رأسه، وركب "المحروسة" التي أقلت جده إسماعيل بعد خلعه هو الآخر، وودعه الشعب كما ودع جده، والجماهير تقول له "أنزل" إذ رأته يتلكأ في النزول، وركب هو وأهله ومعهم صناديق الذهب التى صاغها من قطرات الدماء والدموع التى سكبها الشعب، وأقلعت المحروسة، وقضى الأمر، واستوت على الجودي، وقيل بعد للقوم الظالمين..

شمس الغروب

بارح فاروق أرض الكنانة بعد خلعه من العرش، عرش آبائه وأجداده الذين تربعوا عليه. وتنازل عن الملك نزولاً على إرادة الشعب، فهل كان هذا هو نهائي المرمى البعيد الذي رسمته "الثورة"؟!

رأت الثورة من الحكمة ألا تكشف أوراقها من أول يوم، فالسفر طويل والزاد قليل، والجماهير ما تزال تعمل بعواطفها المرهقة، أكثر مما تقدح زناد فكرها، وهو المطلوب هنا وبالذات العقل المدرك الواعي الذي ينتهي إلى إدراك هذه القاعدة الذهبية الكبرى وهي:

"تنظيف السلم يجب أن يكون من فوق"

ومتى ما تلألأت هذه الحقيقة في الأذهان، وجب العمل بمقتضى مفاهيمها ومضامينها، وهذا هو النهج السليم الذي يتمشى مع طبيعة الأشياء التي تأبى الطفرة وتستلزم الرزانة لا العجالة..

وها هي الشمس قد انحدرت إلى مغربها، وتركب وراءها فراغاً هائلاً، يجب أن يسد ويملأ.. عملا بقانون "القصور الذاتي".. والشمس الغاربة، هي الزعامة التي أفلست من بعيد.. فماذا يا ترى يخبيء القدر..؟

ديك على غير جداره

رحم الله أمير الشعراء إذ يقول: "ديك على غير جداره.. خلاله الجو فصاح.. وكلب في غير داره.. انفرد وراء الديار بالنباح".. هو هو بعينه ذلك الإنجليزي المتعجرف.. الحارس للقناة..

أما وقد طردنا الملك.. ونبذنا الأحزاب.. فلنلتفت إلى هذا الدخيل الرابض على القناة شمالاً وجنوباً.. الجاثم على أنفاس الشعب يكاد يزهقها.. أعوانه وأذنابه.. أي عملاؤه. صاروا في خبر كان، فما باله هو لا يزال على قيد الحياة حياً يرزق.؟! وماذا يسوغ له قانوناً. أن يبقى حتى اليوم؟! وبعد أن وضعت الثورة يدها على كل جهاز سري.. فعطلته وشلت حركته.

طردنا المستعمر من عقولنا وقلوبنا. قبل أن نطرده من بلادنا، وطردناه من السودان حتى تحررت خيرانه لأهله. وختم صاغراً على وثيقة الجلاء عن مصر، وفرح هو بقيود قبلناها على أنفسنا.

ويومئذ ظن محترفو السياسة كل سوء في خبرة العسكريين. "الذين ضيعوا البلد" ولم يصدر نقد في هذا الصدد اللهم إلا عن ضيق أفق، وعدم اتزان، وحب الظهور، وشقشقة رجعية.

وجلا آخر ديك عن غير جداره، وآخر كلب في غير داره، بقيت تلك القناة، حفرها آباؤنا وأجدادنا. وجرت ولا تزال تجري في أرضنا،

ويستغلها مع ذلك أرباب العصابات الاستعمارية منذ كانت الغفلة تنطلي بكل سهولة على "أهل زمان" ولو بطبق من المكرونة.

وفي مساء ٢٦ يولية سنة ١٩٥٦، في الذكرى الرابعة، للثورة، ذكرى طرد فاروق. وحل الأحزاب، وإلغاء الألقاب، وتحديد الملكية، وإعلان الدستور. وتحقيق الجلاء، كان لابد من قنبلة جديدة. يرن صداها في أروقة الاستعمار، ويلفت دويها كل من كان به صمم، كان لابد من "تأميم شركة قناة السويس". وإلى هنا كان السلم الكبير قد تنظف تماماً بالطريقة المألوفة. من فوق إلى تحت.

وإذن فلنصعد بمواكبنا درجة، إلى قمة الصرح الشامخ اذى بناه لنا آباؤنا لنسكن فيه، نحن لا أعداؤنا، ثم نورثه بأيدينا للأولاد والأحفاد، جيلاً بعد جيل، لا للديكة أو الكلاب.

ضربة معلم

كانت سياسة تأميم شركة القناة "ضربة معلم" لأنها حقاً مغامرة باسلة سبقتها استحكامات فكرية وتعزيزات عملية فعالة، واتخذت لها جميع الاحتياطات وفوق ما تستلزمه الاحتياطات، وأحصيت لها العواقب والدرجات، وكفى أن ثمرتها العاجلة التى جنيناها هي أن الشعب والجيش والحكومة كتلة واحدة متماسكة أشد ما يكون التماسك..

دخل جمال عبد الناصر معترك السياسة الدولية من باب السلام، وأعلنها مدوية "لا شرقية ولا غربية" ونادى بالقومية العربية، وهتف من كل قلبه "نسالم من يسالمنا ونعادي من يعادينا"، وندد بالأحلاف العسكرية، والتجمعات الدفاعية من خارج المنطقة، والتزم الحياد الإيجابى، وقال لإسرائيل: حذار يا خضراء الدمن..

وعندما ناشدت مصر السلام على لسان "جمال" ظنت انجلترا وفرنسا وأمريكا أنه يستجدي تقدم كأى زبون شريف السمعة لشراء السلاح والقمح، فأبوا إلا بشروط خانقة، قال لهم: ساهموا معنا في مشروعاتنا العمرانية، لا فائدة، والاستعمار هو هو الاستعمار..

لم ييأس مدرس "التكتيك" وقائد الثورة، فطرق على الباب الشرقي طرقاً خفيفاً لطيفاً، فانفتح الباب على مصراعيه وقوبل بكل ترحاب، لاستار حديدي، ولا قيود ولا أغلال، لا مطارق ولا مناجل، وتم تسليح مصر، وتموين مصر، أخذت كفايتها وزيادة، وأهدت إلى الجارات: صفقات تجارية حرة، ومبادلات عادية، وشروط سخية للغاية.

و"التسلح" هو نقطة التحول الكبرى في تاريخ الشرق كله، تدفق علينا السلاح من كل صوب، سلاح الجو والبحر والبر، كل يوم حتى امتلأت المستودعات، وتحسس جمال عبد الناصر، الأرض التي نقف عليها، والسائر الذي نسند إليه ظهورنا، فطمأن إلى أننا في مركز حصين

ووضع متين، فأحكم التصويب على الهدف وضغط على الزناد وأطلق القنبلة الزمنية، وفي الحال تمت إجراءات تأميم الشركة المنحلة..

يومئذ كان المصريون شيوخاً وشباباً رجالاً ونساء، قد فرغوا جميعاً من التدريب العسكري، وأصبح كل مصرى ومصرية على أتم استعداد لخوض المعركة من غير تردد، فالروح المعنوية عالية، والسلاح موفور، الأزهر، شيخه الأكبر، وأساتذته وطلابه، والوزراء ووكلاؤهم، كبار الموظفين، الموظفون، العمال، الأمهات، والفتيات، أرباب الحرف والمهن، جميعاً امتلأت بهم معسكرات التدريب بكل سرعة على أحدث أساليب الدفاع والمقاومة الشعبية.

وذهل الإنجليز واختبل غزلهم، فقاموا بمثل المظاهرة الرباعية سنة ١٩٥١، ولكنها هذه المرة كانت على نطاق واسع، كانت أشد من سابقتها مراعاة لمقتضى الحال، ولمتابعة التطورات الناشئة عن سياسة التسلح في مصر، تسلح الشعب والحكومة.

وبريطانيا– وأذنابها التي طالت وتكاثرت هذه المرة– تستعد لمنازلة،. ماذا؟ القصر.. لا.. الحكومة.؟. لا.. الشعب.؟. لا.. وإنما تنازل جبهة واحدة عريضة، تنازل عملاقاً عسكرياً لا مدنياً، لم يصنعه الله من طينة الأقزام، الذين طالما قوست ظهورهم انحناءات الولاء لجلالة الجالس على العرش، وإنما هو دم جديد يسري في أصلاب عريقة، ليس

في حاضره أو ماضيه أدنى شائبة من "الرجعية" أو "القدمية" بل قوام بين ذلك..

من أجل هذا، بذلت انجلترا قصارى جهدها في تأليف رواية "جمعية المنتفعين بالفتاة" بقصد الاستيلاء بالقوة على صاحب الدكان، واقتسام بضائعه مع زبائن المحل قرصنة من نوع جديد..!

وعملت "الجمعية" على تدبير المقالب ضد مصر، وجر رجلها إلى المجال الدولة، فكان الحق في صف مصر، ولواء السلام خفاق فوق رءوسنا. وأعددنا أنفسنا للتفاهم الودي في "مؤتمر جنيف" والمساهمة بجميع إمكانياتنا في خدمة العالم، وتبادل المنفعة، وفي الطريق إلى جنيف لاذوا بشريعة الغاب، واستلوا الخنجر المسموم، وطعنوا السلام من خلفه..

ولم يتخلص (انطوني إيدن) من العقلية الاستعمارية البالية. التي أكل الدهر عليها وشرب، لو كان في حسبانه أن بمصر خونه من الطراز القديم، وأن فلول الرجعية، ورواسب الخزبية، لا تزال حية تسعى، ولكن طاش سهمه وخاب فأله، فقد أمسكت مصر بخيوط المؤامرة، وتغدينا بهم قبل أن يتعشوا بنا، وتقلصت الجمعية حتى صارت تعرف بـ"العدوان الثلاثي".

لقد كد (إيدن) ذهنه لتبرير جريمته الشنعاء التي ارتكبها في حق مصر، بل في حق هيئة الأمم المتحدة، ودولها الأعضاء بالذات، بل في

حق الرأي العام البريطاني نفسه، فما كان منه إلا أن وتف في مجلس العموم، فأعاد إلى الأذهان ضحايا حريق القاهرة، لهذا اختارته العناية الإلهية للأخذ بالثأر من المصريين.. وهكذا "يرضي القتيل وليس يرضي القاتل".

كان هدف العدوان القضاء على مكاسب الثورة.. التي حققفتها للشعب المصري.. والعالم العربي.. في أربع سنوات.. وقص أجنحة "النسر" المصري.. حتى لا يزاحم الغيلان..

هذا النسر الوليد.. الذي طار منذ نبت الريش في جوانبه.. ولفت إليه الأنظار في مدى أربع سنوات رجحت في موازين التاريخ مئات السنين التي سلختها مصر.. في ذلك وهوان..

مقبرة الغزاة

وفي الأسبوع الأخير من أكتوبر سنة ١٩٥٦.. شنت دول المؤامرة غارة شعواء على مصر.. ولقنت كل دولة منها كل رضيع قبل أن يرشد أن جمال عبد الناصر "سرق القناة"..

وكانت جزيرة قبرص.. نقطة تجمعات المتآمرين: انجلترا وفرنسا وإسرائيل.. وأمريكا.. ولكن من خلف الستار.. إنذر بريطاني لمصر.. رفض طبعا جمال عبد الناصر.. وليكن ما يكون.. وإن عدتم عدنا.. وبدأت (إسرائيل) بتمثيل (مخلب القط).. فقامت بمناوشات على

الحدود.. خف إليها الجيش بوحداته.. وإذا ببريطانيا وفرنسا.. تضربان في بور سعيد.. ضربا متوالياً.. وقصفا متزايدا بلا هوادة.. حتى يقع الجيش بين فكى كماشة.. وتتم إبادته في (سينا)..

انكشفت الخطة الدنيئة.. وفطن لها مدرس (التكتيك..).. وابتسم.. وسرعان مادوى صوت العرب.. في جميع أقطار العرب.. وإذا برقعة القتال تتسع على الاستعمار..

لا يسـألون أخـاهم حـين ينـدبهم　　　في النائبات على ما قال برهانا

وعجلان ما تمزقت مواصلات العدو.. وتقمص الفدائيون أرواح الصواعق لملافاة "الشياطين الحمر".. وأصبح العرب جميعاً فدائيين بحكم الفطرة.. لا في مصر وحدها... بل في كل ميناء عربى، وعلى امتداد أنابيب البترول العربي. وتتابع نسف الذهب الأسود، فاتخذ سبيله في البحر سربا..

وكانت بور سعيد، رأس الجسر، وشهد العالم لونا جديداً للكفاح، لم يؤلف منذ سنة ١٩٥١، بل هو شيء آخر، لا مثيل له تحت الشمس: الشعب مسلح، والجيش مسلح، والطلبة والعمال والفتيات، حتى الطلبة العرب، وإصرار عنيف على الدفاع، إيمان يهد الجبال الرواسي، ولا يتزعزع، رئيس الجمهورية بلامبس الميدان، وفي سيارة الجيب، إخوته مثله، الوزراء في الخطوط الأمامية" في خط النار، قواتنا الانتحارية، وضفادعنا البشرية، تتلوى بين طيات الرمال؛ وفي ثنايا الأمواج، (جول جمال) الضابط السوري يستشهد جنباً إلى جنب مع أخيه المصري،

والقومية العربية، أصبحت مجسمة، درعا واقيا للعروبة من كل استعمار، مهما تكن أساليبه، ومهما تعددت ألاعيبه.

وهكذا: أمم (جمال) شركة القنال، فصمدت بور سعيد للعدوان الثلاثي، وانتهى بانتصاره الثورة، والقومية العربية.

ورب ضارة نافعة.

بين عهدين

هي القيادة

المنطقة هي هي، والشعب هو هو، ولكن هي القيادة، القيادة هي التي أحكمت الخطط، فلم ؟؟ واحدة منها الأخرى، ولم تتأخر عنها، وهنا فقط يصح أن نقول في غير تهكم "كل شيء على ما يرام".

كان الجو ملائماً كل الملاءمة، للبذل والتضحية، لماذا؟! لأن الشعب، ورئيس الجمهورية، والحكومة، والجيش، والبوليس، جميعاً وقفوا جميعاً على خط مستقيم واحد، والخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين..

وكانت مصر لهؤلاء جميعاً على قدم المساواة. ولمن بعدهم وحدهم لهذا فالجميع يفتدونها بالأرواح جملة لا فرادى، بالملايين لا بالآحاد والعشرات، تلك هي "مصر الثورة"، "مصر الجمهورية".

أما مصر الملكية فكان فيها الجهاد على عاتق عشرات، لا غير، أرخصوا في المعركة دماءهم، بينما اللصوص يجنون ثمان الشجرة التي ردوها بالدم، "حرب عصابات"، لا بل "حرب أعصاب".

معركة يخرج منها الشعب كما يخرج الفلاح من المولد بلا حمص، ويجتمع الملك والحكومة وأذناب الأحزاب، وسدنة الإقطاع، وأصحاب المصالح لاقتسام التركة قبل أن يواروا الجثة في أطباق التراب. في مصر الثورة، لم تكن الحكومة تخفي على شعبها خطوات المعركة دقيقة دقيقة، وكانت تتخذ من الحقيقة والواقع، مادة لتموين الشعور الوطني، وشحن الوعي القومي، إيماناً بالعزة والنصر..

وما بين عشية وضحاها، أصبحت مصر السابحة في نعمة السلام قلعة كبرى، تبح بالذخيرة الحية، وتضج من تحت بركان خامد، المعدات كافية لمواصلة الكفاح، والظروف مهيأة، والخطط مستوفاة، فلتتسع ميادين الحرب، ولتزدد شهورا على شهور، فنحن لها..

في مصر الثورة، خف الوزراء بملابس الميدان، والمدافع الرشاشة إلى المعركة مع (حسنين) و(أبو سريع) و(أم علي) صفا واحداً مع كمال الدين حسين وحسين الشافعي وعبد اللطيف البغدادي.. وهم هم الوزراء الذين سبق لهم خوض غمار معركة فلسطين سنة ١٩٤٨ متطوعين ومجندين، فإذا بهم في القنال سنة ١٩٥١ متطوعين أو متنكرين، وفي ثورة سنة ١٩٥٢ متكاتفين متكتمين، فهم اليوم سنة ١٩٥٦ أكثر المواطنين شوقاً إلى الزحف وأقواهم حنيناً إلى ساحة الشرف، وأثبتهم جناناً في المحن..

لقد صارت مصر لنا ولهم، بناوبهم، قيادة وحكومة وشعباً، وانقشعت من سماء مصر، تلك السحابة السوداء التي حجبت عنها شمس الحرية، وانزاحت من طريق مصر تلك الحجرة الكأداء التيكانت سبباً في تعويق المواكب الزاحفة عن درك أهدافها.

كيف كان يمكن الوصول إلى النصر، وعلى العرش ملك دخيل متغطرس، ليس من جنسنا، ولا يتكلم بلساننا، ولا يفهمنا إن كنا في أفراح أو أتراح، ملك مختلس مدلس، يرشو ويرتشي، يتآمر مع السماسرة على صفقات الأسلحة الفاسدة، يطعن بها جيشه وحرسه من الخلف، ضاعت هيبته أمام أمه وأخواته، وأمام السوقة، وجهازه الفكري عقيم معطل، يحكم بغرائزه ونزواته ٢٢ مليون من البشر؟!

خلت مصر الثورة من مثل هذه المعوقات، لأنها لم تعترف بسياسة "الطريق المسدود"..

هنا. وهناك

معركة المعاهدة كان طابعها (الارتجال) ومعركة التأميم كان طابعها (التكنيك) هناك وقف الشعب وحده في وجه أعدائه مجتمعين، وهنا وقف الشعب العملاق، العملاق جداً جداً، أشبه ما يكون (بحصان طروادة)، وفي أحشائه جمال عبد الناصر كحاكم ومحكوم، وجيش وبوليس، لأنه ابن الشعب، والشعب معه ومن حوله، ولابد للشعب أن ينتصر..

هناك أحجم الجيش، أو هكذا أريد له– فضاعت هيبته وهيبة قادته وحكومته، وهنا كان الجيش مع الشعب في كل مكان، مع الشعب ممتزجابه، متفاعلاً معه، قائداً ومرشداً ومنظماً، في المقدمة، في الميمنة، في الميسرة، في القلب، لا في المؤخرة.. أبداً.. بل مع الشعب في التدريب قبل المعركة، ومعه في الكفاح أثناءها، وفي رأس قائمة الفدائيين الانتحاريين..

هناك كان الغرض ابتزاز الأرواح، والصيد في الماء العكر، وهنا كان الغرض استرخاص الأرواح لجنى ثمرة النصر للجميع.

هناك لم يكن للنضال أهداف بارزة، وهنا كان الهدف غير متعدد ولا مهزوز، بل معلوم معروف.

هناك برح لاخفاء عن مؤامرات العرش والحكومة، وهنا الكشف الغطاء عن جوهر الثورة، فزادت بريقاً وتوهجاً ولمعاناً.

هناك بلغ السخط على كل شيء مداه، وهنا بلغ الرضى عن الثورة قصاه..

هناك تصدعت أركان الحكم في الداخل والخارِج، وهنا تماسكت أركانه، وساندنا في كفاحنا وحقنا ضمير العالم، ووعي الشعب، وتضامن العرب..

هناك لعبت أيدي الاستعمار، فخلفت جوا من التخلخل، تهادت فيه الحكومات، تباعاً في أوقات متقاربة، كأوراق الخريف، وهنا أدى التماسك والتساند الداخليان، والعطف والعون الخارجيان إلى انهيار جمعية المنتفعين، والسخط على (إيدن) و(موليه) و(بزجوريون) ومن شعوبهم قبل شعوب العالم..

هناك نجح الاستعمار في حرق القاهرة، وهنا نجحت القومية العربية في بيع أساطيل الاستعمار في سوق المخلفات..

هناك استحلت بريطانيا ديوننا عليها وجمدت حسابنا في بنوكها، وهنا أممنا شركة القناة؛ وتم تمصير مئات الشركات والمصاريف والمؤسسات..

وخرجنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، وتم لنا النصر بإذن الله..

وفي الختام

وفي الختام سيسجل التاريخ هذه الحقيقة الجلية الجليلة، وهى لم يكن الجلاء في ذاته غاية المراد من رب العباد، وإنما كان مجرد خطوة، حققتها الثورة، وأتبعتها بخطوات، فلما بدأ الاستعمار بالعدوان الثلاثي علينا، تخلينا عن كل رباط بيننا وبينه، وواجهناه بإلغاء "اتفاقية الجلاء"، ضربنا بها عرض الحائط، في غير جلبة أو زفة، ومضينا في طريقنا المرسوم في الحياد الإيجابي والقومية العربية، والعمل المشترك من أجل التحرر والسلام.

الفهرس